

المكتبة الثقافية

٨٥

أيام في الإسلام

أحمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإعلام والفنون
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ مايو ١٩٩٣

المكتبة الثقافية

- ◆ أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- ◆ تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة
- تحتوي جميع ألوان المعرفة بأقلام اساتذة
- متخصصين وبقر لكل كتاب •
- ◆ تصدر مرتين كل شهر • في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

تعمير الصحارى

الدكتور عز الدين فراج

أول يونيو ١٩٦٣

قناة الارشاد السياحي على اليوتيوب



سياحة و ثقافة

قناة الكتاب المسموع



صفحة كتب سياحية و أثرية و تاريخية
على الفيس بوك



مصر - ثقافة

المكتبة الثقافية

٨٥

أيام في الإسلام أحمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ مايو ١٩٦٣

الناشر



دار الفانم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلي ونسلم على أنبيائه
ورسله ، وعلى خاتمهم محمد وآله وصحبه وأتباعه ، ومن دعا
بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذي هو خير :
« ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

تقديم

هنا كتاب عن طائفة من أيام الإسلام ، وكم في تاريخ الإسلام من أيام .

ولو رجعنا إلى دستور الإسلام الأول ، وكتاب العربية الأعلى - وهو القرآن الكريم - لوجدنا مادة «اليوم» تتكرر فيه أكثر من خمسمائة مرة ، ولوجدناه يحدثنا عن أيام وأيام . فهو يحدثنا عن اليوم الآخر ، يوم الدين ، يوم القيامة ، اليوم الذي لا ريب فيه ، والذي لا يبع فيه ولا خلال ، والذي تبيض فيه وجوه ، وتسود وجوه ! . .

ويحدثنا عن « يوم الحج الأكبر » حيث يقول في سورة التوبة : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . وقد أخبرنا المفسرون أن هناك حجين : الحج الأصغر وهو العمرة ، والحج الأكبر وهو الحج المفروض ، وقد روى أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، لأن الرسول

صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة
التي حج فيها وقال : أى يوم هذا ؟ . قالوا : يوم النحر . قال :
هذا يوم الحج الأكبر .

وحدثنا القرآن عن الأيام المعدودات فقال في سورة البقرة :
« واذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم
عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله ، واعلموا
أنكم إليه تحشرون » . والأيام المعدودات هي أيام التشريق
بمعنى ، وهي أيام رمى الجمار الثلاثة عقب يوم النحر . وكان
الرسول يقول عنها : « إنها أيام ذكر الله عز وجل » . ويقول :
« أيام التشريق أيام طُعم وذكر » . ويقول : « إن هذه
الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله » .

وحدثنا القرآن عن الأيام المعلومات ، فقال في سورة الحج :
« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من
كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام
معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا
البائس الفقير » .

والأيام المعلومات هي الأيام العشرة في صدر ذى الحجة ،
وقيل هي يوم النحر مع أيام التشريق .

وحدثنا القرآن عن يوم حنين ، وهو يوم الكثرة التي لم تغن ، فقال في سورة التوبة : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . »

وحدثنا عن يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، وعن يوم الهجرة ، ويوم إكمال الدين ، ويوم الجمعة ، ويوم الفطر : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » ، ويوم النحر : « فصل لربك وانحر » ، ويوم التقاء طالوت بجالوت : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزم موهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت . وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين . »

وحدثنا القرآن عن « أيام الله » حيث قال في سورة إبراهيم : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك لآيات لكل صبار

شكور » . وقال في سورة الجاثية : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » .
و « أيام الله » هي نعمه التي أنعم بها على مستحقيها ، ونقمه التي صباها على مستحقيها ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

* * *

وحدثنا تاريخنا أن للعرب في جاهليتهم أياما ووقائع ، أطل الحديث عنها السابقون ، مثل ابن عبد ربه في « العقد الفريد » وسواه ، ولكن شتان ما بين أيام غمرتها ظلمات الجاهلية ، وأيام باركتها يد الله العلى الأعلى . .

كما حدثنا أدب لغتنا في شعره ونثره عن يوم الندى ، ويوم الطعان ، ويوم النعيم ، ويوم البؤس ، واليوم الأنيوم وهو الشديد ، والأيام الغر الطوال ... إلخ .

فإذا كان للأيام كل هذا الشأن في معجز البيان ومأثور الأدب ، فما أحق « أيام الإسلام » التي ازدهرت في عهده الأول على مقربة من جلال النبوة وهدى الرسالة أن يكون لها

حديث وترجمان ، وإنه لمن التشریف للصفحات التالية أن يدور حديثها حول طائفة من هذه الأيام .

وإذا كانت الإشارة في هذه الصفحات قد قامت أحيانا مقام العبارة ، أو ناب الإجمال عن التفصيل ، فإن العلامات على الطريق تهدي السائرين إلى غايته .

وإذا ضاق نطاق الحديث اليوم عن الاستقصاء ، فإن المأمول أن يكون من وراء اليوم غدٌ تدرك فيه النفس مالا تبلغه الآن . وعلى الله قصد السبيل .

« القاهرة في يناير ١٩٦٣ »

أحمد الشرباصي

يوم الندوة

الناظر في سيرة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم يرى فيها كثيراً من المشاهد والصور التي تحفل بجلائل الحوادث ، وتفيض بالحركة والحياة والانفعالات المختلفة ، وكأن هذه المشاهد أشرطة سينمائية تأخذ البصر بملاحمها ، وتأسر اللب بروعتها ، وتستولى على الذهن بدوافعها ونتائجها .

وفي لحظة من لحظات الذكرى والتخيل جعلت أتصور مشهداً من هذه المشاهد التي وقعت في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو مشهد اجتماع « دار الندوة » الذي عقده للمشركون قبيل الهجرة لتدبير المؤامرة الحسيسة ضد سيد البشرية ونبي الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ... وتلاقى التاريخ ، والتصور ، والخيال ، على رسم ذلك المشهد بالصور التالية ، وكأنها لوحات على شاشة تمر متتابعة فتصور ما كان ، أو قريباً مما كان .

نشهد المشركين في مكة مقبلين على « دار الندوة » المجاورة للكعبة في عجلة واهتمام ، والليل يلف مكة وشعابها بستار من الظلام

والرهبة ، ونسمع من بعضهم أنهم قادمون للتشاور في أمر محمد
الذى يريد أن يجعل الآلهة إلها واحدا ، ويريد أن ترك دين
الآباء والأجداد ، وأن هجر عبادة الأصنام التى نعبدتها لتقربنا
إلى الله زلنى . ونرى الحقد والغيط وشهوة الانتقام الأثيم بادية
واضحة على وجوههم .

ثم تبدو دار الندوة من الداخل وقد اجتمع فيها رهط
المشركين ، ونرى بينهم أمثال أبى سفيان ، وأبى جهل ،
وأبى لهب ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة
ابن الأسود ، وخالد بن الوليد ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمىة
ابن خلف ، وحكيم بن حزام ، والحكم بن أبى العاص ،
وأبى البحتري بن هشام ، والأسود بن ربيعة ، وغيرهم ، ونشهد
سيوف القوم إلى جنوبهم ، كأنهم متهيئون لتنفيذ جرم أثيم .

ونسمع أحد الموجودين يقول : أما آن لكم أن تتخلصوا
من محمد وصحبه بطريقة حازمة وعمل فاصل ؟ . لقد كنتم تخافون
عمّه أبا طالب ، فقد مات ، وكنتم تهابون زوجته خديجة
بنت خويلد وقومها ، فقد ماتت . . فإذا أنتم صانعون ؟ .

وهنا يدخل على القوم شيخ نجدى غريب ، طاعن فى السن ،
رهيب الطلعة ، خبيث الملاح ، عليه طيلسان واسع ، ويحييمهم ،

فيتطلعون إليه مستكشفين أمره ، ويسأله الوليد بن المغيرة :
 من الشيخ ؟ ومن ؟. فيجيبه : إني من أهل نجد ، ومن الممثلين
 حقداً وغيظاً على محمد الصابئ الذي فرَّق كلمة العرب ، وقد
 سمعتُ باجتماعكم فجئت أحضره راجياً أن يكون لي فيه رأى .

فيسارع أبو جهل بتوجيه الخطاب إلى الوليد بن المغيرة
 قائلاً : دعه يشاركنا يا شيخ بنى مخزوم ، فإنه ابن عمنا ، وهواه
 من هوانا في محاربة محمد وصحبه .

ونلمح رضا الأكثرية عن هذا الرأى ، فيشير إليه الوليد
 بالدخول ، فيدخل ، ويأخذ مكانه قريبه من صدر المجلس ،
 ويظهر احتفاء القوم به ، واهتمامهم بأمره .

ويتكلم خالد محتداً فيقول : خبرونى يا قوم : ماذا ستصنعون
 فى أمر محمد ؟ فأنى أخشى أن يقوى ساعده بمن يتبعونه ، ثم
 يحاربكم بهم بعد أن يفسدهم عليكم . فيقول أبوالبحتري بن هشام :
 الرأى عندى أن نقيد محمداً بالأغلال ، ونحبسه خلف الأبواب
 حتى يموت .

وتسرى حركة تطلع بين بعض القوم وبعضهم الآخر ،
 ونلمح أن أسرعهم فى التطلع وأدقهم فيه هو الشيخ النجدى ،
 الذى يسارع بمعارضة هذا الرأى قائلاً : عندى أن هذا ليس

بالرأى الرشيد ، وحقّ اللات والعزى لو حبستموه لغضب له قومه وأتباعه ، وقاموا فاتزعوه من سجنه ، وحاربوكم به ، فابحثوا لكم عن رأى آخر .

وهنا نسمع بعض الأصوات تهمهم قائلة : نعم ، صدق الشيخ النجدى . . . صدق الشيخ النجدى ، فابحثوا لكم عن رأى آخر . فيقول الأسود بن ربيعة : أرى أن تنفى محمداً من بلادنا ، فإذا ابتعد عنا لم نبال أين ذهب ، ولا ماذا حدث له . ويهم البعض بتأييد هذا الرأى ، بينما يتطلع بعض آخر إلى وجه الشيخ النجدى ليروا وقع الاقتراح فى نفسه ، ويسارع هو بالاعتراض قائلاً : وليس هذا برأى رشيد . . . ألم تروا براعة محمد فى الحديث ، وقدرته على جذب الناس إليه ؟ . وحقّ الآلهة لو تركتموه يمشى فى الأرض لفكّن الناس وحرصهم عليكم .

وبينا نشهد أمارات التسليم بهذا الاعتراض على طائفة من الوجوه نرى شاباً لعله خالد يقف ويقول متحمساً وهو يقبض على سيفه : إذن لم يبق لمحمد إلا هذا السيف يرتحنا منه . . . ونلاحظ حسن الوقع لهذا التحمس فى نفوس الشباب ، ولكن أباسفيان يقول موجّهاً الحديث إلى خالد : حسبك حماسة

يافتى مخزوم ، ولاتنس عادة العرب في طلب الدم والأخذ بالثأر .
ويتطلع الوليد بن المغيرة إلى الشيخ النجدى قائلا : ما رأيك
يا شيخ نجد ؟ . بينما نرى الشيخ النجدى في تفكير عميق ، وكأن
عبارة خالد وتعليق أبي سفيان قد فتحا له بابَ الرأى الرشيد
في تقديره ، ويهم بالتكلم ، فيصمت الجميع معلقين أبصارهم به ،
فيقول : إن لى فى محمد هذا رأيا سيرضيكم جميعا ، الرأى عندى
أن تختاروا من كل قبيلة شابا قويا صاحبَ حسب ونسب فى قومه ،
ويجتمع هؤلاء الشبان على ضربه دفعة واحدة ، و . . .

فيسارع أبو جهل (واسمه أبو الحكم عمرو بن هشام) متما
كلامه ، وكأنه كان يفكر فى نفس الفكرة التى يفكر فيها
النجدى ، فيقول : « وبذلك يتفرق دم محمد بين القبائل ،
فلا تستطيع قبيلةُ محمد أن تقاتل العرب كلهم ، فتقبل منكم الدية ،
وتستريحون من أمره وشره » .

فيضحك الشيخ النجدى ضحكة خبيثة قائلا : لقد صورت
ما بقلبي يا أبا الحكم كأنك تطلع عليه . فيقابله أبو جهل بابتسامة
مماثلة فى الحبث قائلا : وحقّ الآلهة ، ما كنت أظن أنه سيخطر
هذا الرأى على قلب أحد غيرى ، اللهم إلا أن يكون الشيطان ! . .
وتظهر موجة من الارتباك والاستياء على وجه الشيخ النجدى

من عبارة أبي جهل ، إلا أنه يسارع بالتماسك وتجاهل ما قال ! ...
وتبدو الموافقة والإعجاب بالرأى السابق بين الموجودين ، وهنا
ينهض خالد قائلاً : ومادام هذا هو الرأى ، فلا داعى للتأخير
فى التنفيذ ، ولتكن الليلة هى ليلة الفصل فى أمر محمد الصابى ،
وهأنذا عن بنى مخزوم ، وهذا سيفى ! ! ويقبض
عليه ليشره .

وهنا يقول أبو جهل : انتظر يا خالد حتى نعرف زملاءك ..
ويتلفت أبو جهل ويقول : من الذى سينوب عن بنى عبد شمس ؟
ونرى شخصاً يقف ويقول : عقبة بن أبى معيط . فيقول
أبو جهل : ومن سيمثل بنى عبد الدار ؟ . فيقف واقف ويقول :
النضر بن الحارث . فينادى أبو جهل : ومن الذى سينوب
عن جمح ؟ . فيرد راد : أمية بن خلف ، فيقول أبو جهل :
ومن سينوب عن بنى هاشم ؟ . فيجيب مجيب : عبد العزى
ابن عبد المطلب (أبو لهب) . فيقول أبو جهل : ومن سيكون
فتى بنى أسد ؟ . فنسمع من يقول : حكيم بن حزام إلخ .
أو هكذا فعلوا فالحيال هنا هو الذى يتصور .

ونترك القوم يتممون اختيارهم ويكملون مؤامرتهم ،

ويأخذون أهبتهم للتوجه إلى بيت محمد ، وننتقل إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأنا نشهد نورا قويا ساطعا هابطا من السماء ، حتى يدخل البيت النبوي الكريم فيضيئه ويغمره ، ومعه أصوات غريبة ، كصلصلة أجراس ، أو دوى رعد ، أو حفيف غريب ، أو ما أشبه ذلك ، ويتردد صوت ملائكي رهيب ينادى : يا محمد ، إن الله معك وهو ناصرك ، لا تبث الليلة في فراشك ، فإن أعداء الله وأعداءك في الطريق إليك ليقتلوك ، ولكن الله لك خير الحافظين : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك (ليقيدوك بالوثاق) أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » . ويرتفع الضوء ويعود الظلام ، ثم نلمح الأشباح الكافرة مقبلة ، وأيديها على سيوفها ، ويوزعون أنفسهم في مناجاة خافتة حول البيت ، ويسخرون بمحمد الذي لا يرون له الآن — من جهلهم — حولا ولا طولا ، ويتساءلون : أين إلهه المزعوم لينقذه من أيدينا ؟ وأين الضعفاء الذين خدعهم فاتبعوه ليدافعوا عنه الآن ؟ ! . . .

ويتطلع بعضهم من منافذ البيت أو الباب ويقول : ها هو ذا محمد في الدار . . . وكأنه يتهاى للخروج لصلاة الفجر ،

وهم يرتقبون هذه اللحظة للانقضاض عليه وضربه ، ويتواصون باليقظة والانتباه ، حتى لا يفلت من أيديهم ، ويستندون إلى جدار الدار جلوسا ، وبعد قليل يدركهم النعاس ، وينفتح الباب ، ويندفع منه ضوء ساطع يعلو المكان فيحيل الأشباح النائمة سديما مهترامتميعا لا يكاد يحدده البصر ، ونسمع الآية الكريمة : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

ويتبعد الضوء ويعود الظلام ، وتبدو خلاله الأشباح النائمة التي يبدو منها شخير منكر الصوت ، ثم نرى تباشير الصباح تلوح ، فيمر بالنائمين أحد المارة من المشركين فيراهم نياما ، ويرى باب البيت مفتوحا ، فيصرخ عليهم فيهبون مذعورين وبعضهم يقول . أين محمد ؟ . وآخرون يقولون : أين هو ؟ . وآخر يقول : لا نجوت إن نجا .

فيهزأ المشرك بهم قائلا : اسألوا عن محمد ما كنتم فيه من نوم وشخير أيها الأبطال . . . ويدخل بعضهم إلى البيت ، وبعد قليل نسمع أصواتا تقول : ليس في البيت إلا على بن أبي طالب . وهنا يوجون ويضطربون . . . أين فر ؟ وأين ذهب ؟ . ونرى خالدا يشور قائلا : يجب أن نقبض عليه ، وأن نقتفي

أنزه ولو كان تحت التراب ، ولن يفلت من أيدينا بحال
من الأحوال .

ونترك هؤلاء يموجون في حيرتهم وضلالهم وتفرقهم ذات
اليمن وذات الشمال للبحث والتفتيش ، وننتقل إلى المدينة فترى
أهلها مجتمعين في فرح وجبور ، ليستقبلوا البدر الذي يطلع
عليهم من « ننيات الوداع » ، محمد عليه الصلاة والسلام . .



يوم الهجرة

في تاريخ الأمم والجماعات أعمال ظاهرة باهرة ،
 ماجدة خالدة ، لا يقتصر أمرها على بعد النظر ،
 أو عبقرية البشر ، أو الوسائل الأرضية الآخر ؛ بل تؤيدها
 قوة السماء ، وتلحظها عناية الله ، وتحفظها ملائكة الرعاية
 والرحمة .

وفي مقدمة هذه الأعمال حادث الهجرة ، إذ فيه نرى الحقّ
 الأعزل يخلص كريماً من بين مخالب الباطل الباطش ، ونرى
 النبوة الراشدة الحليمة تعلو على السفاهة الكافرة الحمقاء ، ونرى
 القلة المستضعفة ييقينها في دنيا الشك والريبة ، تفوز على الكثرة
 المستبدة الباغية ؛ وليس ذلك كله عمل الإنسان ، ولكنه في بدئه
 ومختتمه تدير الرحمن : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذا أخرجه
 الذين كفروا ثانی اثنين ، إذا هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه :
 لا تحزن ، إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود
 لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ،
 والله عزيز حكيم » .

ولقد تتابعت نظراتنا ووقفاتنا في ذكرى الهجرة ، وستظل متتابعة كذلك ، وليس لدى حظ وسيع من الوهم أو الخطأ أن يقول : إن هذا الحديث الموصول الدائم عن الهجرة لون من ألوان الرُّجعى إلى الماضى البعيد ، او سمة من سمات الاستغراق فى التاريخ السحيق ، لأن الهجرة لم تقتصر بأخبارها وآثارها على عهد دون عهد ، بل هى بوحيا وهديا ، لا تزال جاريةً سارية خلال صفحات الأحيال ، وفى طوايا نفوس الرجال .

وما كان محمد المهاجر — صلوات الله وسلامه عليه — قطعةً من تاريخ يُقبل ثم يزول ، أو يزدهر ثم يحول ، ولكنه قبس من قدر الله ، تبدى فأضاء جوانب الحياة ، ولا تزال عين العلى القدير تحرس هذا الهدى وترعاه ، ولا يزال محمد النبي حياً بسنته وطريقته فى قلوب المؤمنين ، ورءوس العاقلين ، على ممر الأيام والسنين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . وهل جاء الإسلام الحنيف — وهو الدين العاصم الخاتم — ليكون موجّهاً للناس فى عصر دون عصر ؟ أو ليكون قائداً فى مِصرٍ دون مصر ؟ ... أليس هو دين الله أبد الدهر ؟ ...

« إن الدين عند الله الإسلام » ، « اليوم أكملت لكم دينكم ،
وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، « فما
يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟ !
ولسنا حين نستلهم أحداث الإسلام الكبرى — كالهجرة
وغيرها — عبَادَ أمكنة ، أو أسارى أزمنة ، ولكننا طلاب
قدوة وعشاق أسوة ، وليست لفظة الجيد منا إلى ماضينا المحشود
بالمآثر والمفاخر رجعةً إلى الوراء ، أو تعويقاً عن التقدم ،
ولكنها لفظة المتبصر المستذكر ، الموصل سيره على سواء
الطريق ، ونحن لا نمجّد دعاة ، ولكننا نؤمن بدعوة ،
ولا نفنى فى إنسان أو زمان أو مكان ، ولكننا نستمسك بأسباب
الرضا والرضوان ، ممن خلق الإنسان والزمان والمكان :
« ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ...

ونحن حين نستعرض ذكريات الإسلام الجيدة نستلهم
حوافز تدفعنا إلى مواطن العمل والمجد فى غير إسراف
أو اعتساف .

ونحن لا نريد إبطاء المبطلين ، ولا عجلة المتعجلين ،
ولا نرتضى جمود الجامدين ، أو تحلل الإباحيين ، ولا نقبل تعقيد
المعقدين ، أو تثبيط المعوقين ، ولا نفرنا مخادعة المتاجرين ...

ولكننا نريد وئام المتعارفين ، وقوة البائنين ، ومضاء المؤمنين ، وثبات الموقنين ، والعزة على سائر الجبارين ، والعبودية لله رب العالمين ..

نريد أن نجتمع بين العباد والقيادة ، والوحدة والسيادة ، والسلام والسعادة ... نريد أن لا نعرف الإسراف أو الاعتساف ، بل نريد الاعتدال والإنصاف : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

نريد الأجسام الصحيحة الفارعة ، والعزائم الفتية الصاعدة ، والضماير الحية الرادعة ، والعقول الواسعة الجامعة ، والحياة الشريفة النافعة ، والنفوس الزكية الرائعة ، التي لا ترتع في حما الإثم والعدوان ، بل ترتع في رياض الرحمن ورحاب الديان ... وفي استذكارنا للهجرة حق الاستذكار استعانة على السير في طريق هذه الأهداف .

* * *

لقد كانت هجرة محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ثورة
أى ثورة ... كانت ثورة على الفساد فى العقائد ، والضلال
فى الأفكار ، والطغيان فى الحكم ، والاستبداد فى الاقتصاد ،

والإجحاف فيما يستوجب الإنصاف ، فإذا بخطوات محمد من مكة إلى المدينة تمس مغاليق الخير المطوى في هذا الوجود ، فتفجّر بها نِعَمًا تهطل على العباد من أكرم معبود ، وإذا بهذه الخطوات نفسها تطمس معالم النكر والفجور ، فلا وثنية ولا إباحية ، ولا كسروية ولا قيصرية ، ولا عنجهية ولا جاهلية ، ولا عصبية ولا حمية . . . ولكن إخوة إيمانية ، وسنة محمدية ، وعدالة عمرية ، ومودة إنسانية : « قل إن ربى يقذف بالحق ، علام الغيوب ، قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » ؟ ! . .

وكانت هجرة محمد خطوة إلهية مؤيدة في سبيل الحرية وإباء الهوان ، ولا عجب فمحمد هو الذى علم الإنسانية كيف تكفر بكل قيد إلا قيد خضوعها للواحد القهار ، عن طريق إيمانها بسواطع الآيات وقواطع الآثار ، ولا غرو فالحرية صنو الحياة وهى كما قيل : « غذاء الطبائع ، ومادة الشرائع ، وأم الوسائل والذرائع ، بنت العلم إذا عمّ ، والحلق إذا تمّ ، وريبة الصبر الجميل والعمل الجم . الجهل يئدها ، والصغائر تفسدها ، والفرقة تبعدها ، تكبيرة الوجود فى أذن المولود ، وتحية الدنيا له إذا وصل ، وصيحة الحياة به إذا نصل (أى ولد) ، هاتف من

السماء يقول له : يا ابن آدم ، حسبك من الأسماء عبد الله وسيد العالم « ...!!

أو لم تر كيف خرج محمد من مكة دار السكن وعقر الوطن، ومستقر الآباء والأجداد ، ومستتراد المطامح والأجناد ، لأنه أبى إلا أن يكون حراً في حسه ، حراً في نفسه ، حراً من مهده إلى رمسه ، حتى يحقق لكثيية الإيمان أول صفاتها وهي الحرية وإباء الهوان ؟ ...!

وكانت هجرة محمد مفتاحاً لاستكمال الاتحاد بين المسلمين . وهل هناك مظهر للاتحاد أكرم أو أعظم أو أقوم من المؤاخاة بين المهاجر والأنصارى ، حتى يرث كل منهما يومئذ أخاه كما يرث الشقيق الشقيق ؟ ...

وكانت هجرة محمد تنظيماً لصفوف المجاهدين المؤمنين . وهل هناك أدل على النظام من هذا الإحكام في صفوف الرعيل الأول من جنود محمد ؟ ... فلا خيانة ولا خداع ، ولا تمرد ولا امتناع ، بل تكافل ومؤازرة ، وطاعة تكفر بالمكارة ، وحرص على الاستماع والاستجابة دونه الحرص على الحياة أو الأعزاء من الأحياء ...

وكانت الهجرة باباً من أبواب العمل المثمر المفيد . وهل

أدل على ذلك العمل من أن صحابة محمد بنوا دولة الإيمان الوطيدة
الأركان الشاخرة البنيان ، الباهرة لقلب كل إنسان ، في هذه المدة
القصيرة من الزمان : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى
لهم وحسن مآب » .

* * *

لقد هاجر جبيننا وسيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام
من مكة إلى المدينة ، فكانت هذه الهجرة فتحاً جديداً في تاريخ
الإنسانية ، وتحولاً واضحاً في وضع الجماعة البشرية ، ونصراً
ملحوظاً للدعوة الإسلامية ، وكأنما كانت الفاصل بين عهدين
طويلين مديدين : العهد الأول منهما هو عهد الجاهلية الجهلاء ،
والضلالة العمياء ، والبغى الموفى على النهاية ، والشرك المسرف
في الغواية ، والشيطان المسيطر على بنى الإنسان ، إلا من رحم
الله ؛ والعهد الثاني هو عهد الإسلام والإيمان ، واليقين والإحسان ،
والنور الإلهي الذي بثه الله بين عباده ، فأشرقت به الظلمات ،
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

ولذلك يقول الرافعي رحمه الله : « حتى إذا كانت الهجرة
من بعد ، فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل ،
كأنما مرَّ بقدمه على مركزها فحركها ، وكانت خطواته

في هجرته تخط في الأرض ، ومعانيها تخط في التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

وقد علمتنا الهجرة بجلالها ومعانيها كثيراً من الدروس والعظات والعبر . . علمتنا أول ما علمتنا أن الحق لا بد له من وطن ودار وأنصار ، وأن الباطل المستحكم لا يسلم قياده للحق المقبل في يسر وسهولة ، بل إن ذلك الباطل يقف عنيداً شديداً في وجه الحق ، يأخذ عليه الطريق ، ويسد في وجهه المنافذ ، ويتربص به الدوائر ، ويتلمس عنده الثغرات ليطش به أو يقضى عليه ، وحينئذ يحتاج الحق إلى الالتجاء بدعوته ومبادئه إلى تربة خصبة ، ودار آمنة ، وأنصار مؤمنين ! . .

ولم تكن هجرة محمد وأصحابه يوم هاجروا هجرة خوف على أشخاص أو حياة أفراد ، ولكن كانت هجرة في سبيل الله والمبدأ ، وهجرة من أجل الحق الذي يحرص أهله على تبليغه إلى الناس ، وهداية العالم عن طريقه ! . .

* * *

وعلمتنا الهجرة أن صاحب المبدأ القويم والاعتقاد السليم لا يصبر على الذل ، ولا يقيم على الضيم .
لقد بغى الشرك الأحمق على الإسلام الناشئ في مكة ، ولقي

المسلمون على أيدي الطغاة الفاسقين ألوانا من العنت والتعذيب ، وما كان الله ليدع العصبة المستضعفة من عباده تذوق هذه الآلام صنوفا وألوانا ، دون أن يهيء لهم السبيل للاعتزاز ، ويقيض لهم الفرصة للخلاص من هذا الهوان ، حتى يتنهبوا إلى « المدينة » دار النصر و مراكز القيادة ، فينظموا من صفوفهم ، وينتصفوا لأنفسهم ممن بغوا عليهم بغير الحق ، فيكون ذلك الانتصاف تأديبا للإجرام المتوقع ، وتعزيزا للحق المضطهد ، وتكريما للمؤمنين المهاجرين : « والله العزة و لرسوله و للمؤمنين ، و نكون المنافقين لا يعلمون » ..

* * *

وعلمتنا المهجرة أن الشباب إذا نشئوا منذ الصغر على استسهال الخطر كانوا أجلاء الأثر ، وطال عنهم جميل الخبر ... فهذا علي بن أبي طالب رضى الله عنه ربيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتلميذه من صغره ، ينشأ في مدرسة النبوة العظيمة الحكيمة فتي من فتيان الإسلام الأماجد ، لا يخاف إلا الله ، ولا يهاب أحدا سواه ، وهو يقدم على الأخطار غير هيب ولا وجل ، ولقد اجتمع طواغيت الشرك في « دار الندوة » يتشاورون في أمر محمد ودينه ، ثم جمعهم الشيطان على فكرة

التخلص منه بالاجتماع على قتله ، و آتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، وقال له ليلة المؤامرة : لا تبث هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبث عليه .

ولما جاء الليل تلاقى المجرمون تحت الظلام حول بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، ويبد كل منهم سلاحه ، يرصدونه حتى ينام ، ليثبوا عليه وثبة رجل واحد ، حتى يتفرق دمه في القبائل .

وفي هذه البرهة الخطيرة المشهودة في تاريخ البشرية ، المحفوفة بالأخطار والمهالك ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لتلميذه وربيه على : « نم على فراشى ، وتسج يرُدَى هذا الحضرى الأخضر ، فتم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم » . . . !

ويطيع الفتى الوفى ، والتلميذ المخلص ، والشاب الناشئ في طاعة الله ، المتأدب بأدب رسول الله ، الطاعم من فيض دين الله ، فينفذ الأمر بلا خوف ولا هيبة ولا تردد ، وهكذا الأبناء ينشأون على طراز الآباء :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه !

* * *

وعلمنا الهجرة أنها يجب أن تكون لله وفي سبيل الله ،
لا لغرض ، ولا لمرض ، ولا لطلب مغنم ، أو تحقيق مطمح ،
أو نيل رغبة ، فإن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز : ومن
يهاجر في سبيل الله يمجده في الأرض مراغماً^(١) كثيراً وسعة ،
ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت
فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال
بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله
ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا
يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
وإذا قدّم المؤمن عملاً إلى الله تعالى حرص على أن يبذل
فيه من ماله ومن جهده ما يجعله في مقام الخلوص لله ، وما يبعده
عن مظنة الاستعانة بغير الله .

ولقد خرج رسول الله يوم الهجرة وهو يريد وجه الله
وحده ، وهاجر وهو حريص على دينه ودعوته ، وليس بحريص
على حياته أو نفسه ، ولقد أراد أن يبذل من ذات يده

(١) المراءم : المكان بهاجر فيه الإنسان ويتحول إليه .

ما يستطيع ، كي تكون هجرته خالصة منه لله ، حتى روى أنه رفض أن يقبل الناقة التي اشتراها له أبو بكر ليركبها أثناء الهجرة إلا إذا دفع ثمنها من ماله . .

يقول السهيلي في كتابه « الروض الأثف » : « وفي حديث ابن إسحق أن أبا بكر كان قد أعد راكبتين ، فقدّم لرسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة ، وهي أفضلهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لي ، فقال أبو بكر : هو لك يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن ؛ فقال أبو بكر : بالثمن يا رسول الله . فركبها . فسئل بعض أهل العلم : لم لم يقبلها إلا بالثمن ، وقد أنفق أبو بكر عليه من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام . ليس من أحد آمنّ عليّ في أهل ومال من أبي بكر ، وقد دفع إليه حين بنى بعائشة ثنتي عشرة أوقية ونشاً فلم ياب من ذلك ؟ !

فقال المستؤل : إنما ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله ، رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة وأن تكون الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما . وهو قول

حسن ، حدثني بهذا بعض أصحابنا عن الفقيه الزاهد أبي الحسن ابن اللوان رحمه الله .

* * *

وعلمتنا الهجرة أن الله قد يعين عباده خير الإعانة بالسبب الضعيف في نظرهم ، القوى بفضل الله وقدرته ، وأن الله — كما تعبر العامة — « يضع سره في أضعف خلقه » . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يختفي مع صاحبه في الغار الأيام ذوات العدد ، فلا تحرسه أمام الغار مدافع ولا طائرات ، ولا جنود ولا معسكرات ، بل يهيء الله له كما تقول السيرة من العنكبوت حارسا : « وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ، ويهيء له من الحمام حارسا ، وإن الحمام لطير ضعيف أليف ، ليس بذى ناب ولا مخلب !! .

وروى شهاب الدين النويري في كتاب « نهاية الأرب » قال : « وقال محمد بن سعد بسنده إلى زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بضم الغار ، وأقبل فتیان قريش من

كل بطن بأسيا فهم وعصيم وهراواتهم ، حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم قدرَ أربعين ذراعا ، نظر أولهم فرأى الحماطين فرجع ، فقال له أصحابه : مالك لم تنظر في الغار ؟ . قال : رأيت حماطين وحشيتين بقم الغار ، فعرفت أن ليس فيه أحد . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ، فعرف أن الله عز وجل درأ (دافع) عنه بهما ، وقال بعض من حضر في طلبه : إن عليه من العنكبوت ما هو قبل ميلاد محمد . وقال أبو بكر رضى الله عنه : فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا . فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

ولا عجب فالله عز وجل يقول : « ولله جنود السماوات والأرض » ، ويقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وقد أهلك الله أقواما بالطير الأبايل ، وأقواما بسيل العرم ، وأقواما بالريح ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

وقد علمتنا الهجرة أن المرأة المسلمة تستطيع أن تقوم بواجبها في المناسبات الملائمة والظروف الموائمة ، فهذه عائشة الصديقة

بنت الصديق رضى الله عنهما ، كانت حين الهجرة فتاة ناشئة ،
ومع ذلك أسهمت بشئ فى الهجرة ، كما أسهمت معها أختها
« أسماء » ، تقول عائشة عن النبي وأبيها : « وجهازها أحب
الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء قطعة من
نطاقها ، فأوكأت (ربطت) به الجراب ، وقطعة أخرى صيرتها
عصاما لقم القربة ، فذلك سُميت أسماء ذات النطاقين » . .

وكانت أسماء تحمل الزاد من مكة إلى الغار ، غير خائفة من
العيون والأرصاد ، ولقد جاء أبو جهل عقب خروج النبي مع
أبيها مهاجرين ، فسألها عنهما فقالت إنها لا تدرى ، فلطمها لطمه
باغية شديدة احتملتها أسماء فى سبيل الله تعالى . . .

وتصرفت أسماء تصرفا آخر يدل على الذكاء والبراعة
والإخلاص . قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وخرج أبو بكر معه ، احتمل ماله كله معه — خمسة آلاف
درهم أو ستة آلاف — فانطلق بها معه ، فدخل علينا جدى
أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم
بماله مع نفسه ، فقلت : كلا يا أبت ، إنه ترك لنا خيرا كثيرا ..
ثم أخذت أحجارا فوضعتها فى كوة البيت ، حيث كان أبى يضع
فيها ماله ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت يده فقلت : ضع

يا أبت يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس ،
 إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ...
 فلا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ
 بذلك !!! ...

* * *

وعلمتنا الهجرة أن ترك الإنسان لوطنه في سبيل عقيدة
 أو دعوة ليس معناه التكر لهذا الوطن ، أو الإعراض عنه .
 أو النسيان له ، فهذا هو ذا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه
 يخرج من مكة مُكْرَهاً في سبيل الله ، وما يكاد يبرز عن
 أبينتها حتى يلتفت إليها ويخاطبها خطابَ المحب لها الحريص عليها
 فيقول : « والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب
 أرض الله إلى الله ، وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك
 أخرجوني منك ما خرجت » ! .

وها هم أولاء أصحابه المهاجرون يحنون الحنين الطاغى إلى
 وطنهم الأول « مكة » ، حتى يقول الرسول : « اللهم حبّب
 إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد » .. !

ويظل الرسول مشوقاً إلى مكة وهو في المدينة ، ويحوّل
 الله قبلته في الصلاة من الكعبة إلى بيت المقدس ، فيتمنى الرسول

أن يحوله مرة أخرى إلى الكعبة ، ويقلَّب وجهه في السماء راجيا من الله ذلك ، وما يكاد الوحي ينزل بتحويل القبلة إلى مكة حتى يستدير الرسول في صلاته من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة ، وذلك في المسجد ذى القبلتين ، فتعلم من ذلك درسا في حب الوطن والحرص عليه ...

* * *

إن أعمار الأمم والشعوب كأعمار الأشخاص والأفراد ، منها أيام تمر هادئة باهتة ، ثم يطويها سجل النسيان بعد قليل ، لأنها لم تأت بمجديد ، ولم تشتمل على جليل ، ولم تنقل أصحابها من حال إلى حال ...

ومنها أيام تأتي بغير توقع ، أو على انتظار ، فتحرك الساكن ، وتنفض الهامد ، وتبعث الراقد ، وتمر ساعاتها كما مرت ساعات الأيام الأخرى ، ولكنها تظل حاضرة مشهودة بالعقول والأرواح ، وإن لم تشهدا الأجساد والأشباح ، وتظل ذكرها باقية ، عميقة الجذور ، سامقة الفروع في الخواطر والقلوب ، وما كان ذلك إلا لأنها أقبلت حين أقبلت تحمل في ركبها ما يستلقت الأبصار والبصائر ، وما يثير العواطف والمشاعر ،

وما يهز أعواد المحافل والمنابر ، وما يستثير خفايا البواطن
والسرائر .

والأيام الخافتة الباهتة في حياة الأفراد والشعوب كثيرة
العدد ، طويلة المدد ، لأن الأعمار العادية تظل في أغلب أحوالها
رتيبة ، متشابهة المعالم ، متشكلة الجوانب ، حتى لقد تجلب على
أهلها السأم والكلال ، وأما الأيام العظيمة الكريمة ، الحالدة
الماجدة ، في تاريخ البشرية وأبنائها ، فهي قليلة محدودة ،
ومتميزة معدودة ، لأن الروعة ، والعبقرية ، والتفرد ،
والامتياز ، أشياء ليست حمى مباحاً لكل طالب ، وليست سلماً
رخيصة يقتدر على ثمنها كل راغب ، وإنما هي أشبه بالفلتات ،
تأتي بضع مرات في الجيل أو الأجيال ، فإذا هي تبدل
الأحوال ، وتأتي بجلال الأعمال ، والله يختص بفضله من يشاء ،
وكل شيء عنده بمقدار .

وعلى الرغم من كثرة الأيام الباهتة في حياة الشعوب ، فإن
كثرتها لا تغنيها في السباق أو عند التنافس فتيلاً ، لأن الأيام
اللامعة الماجدة مع قلتها تغطي بضوئها وبهائها على السكرة الخافتة ،
فإذا هي هباء :

« وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ولا شك أن « يوم الهجرة المحمدية » على صاحبها أزكى الصلاة وأعطر السلام ، كان تاجاً لأيام البشرية المجيدة ، إذ لم يكن مثلاً فريداً للإقدام من رسول الإسلام فحسب ، ولم يكن نقطة تحول في تاريخ الدعوة الإسلامية فحسب ، ولكنه كان فوق هذا ، أو قبل هذا ، ابتداءً جديداً لتاريخ البشرية التي طالت بالأمس حيرتها ، وتفرقت بأبنائها السبل ، فمنهم من ضل ، ومنهم من جهل ، ومنهم من فسق ، ومنهم من حار . ففضل قيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، على هذه البشرية الحائرة ، بمن ينقذها من ظلمات الضلالة والشقاء ، ويخرجها إلى باحات الهداية والهناء ، فجاءت الرسالة محمداً على قدرٍ من ربه ، وجاءت الهجرة لهذه الرسالة باباً واسعاً من أبواب الأمل والرجاء ، وفتحا جديداً من فتوح التمكين والاستعلاء .

ولولا الهجرة لظلت الدعوة الكريمة الحبيبة حبيسةً في شعاب مكة ، يتربص بها المجرمون الدوائر ، يضاوّلونها تارةً وتصابرهم تارات ، ويستعينون عليها بالجاه العريض ، والمال الكنوز ، والهوى الجموح ، والعصبية الكاذبة ، وتتمسك هي منافذ التأثير

والإقناع في نفوسهم الضالة المضلة ، التي تسمع كلمة وتعرض عن كلمات ، وليس في الدنيا أشد صمما ممن لا يريد أن يسمع : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ، ثم إليه يرجعون » ، « وما أنت بمسمع من في القبور » .

ولكن الهجرة أقبلت بعد طول المصابرة من جهة الدعاة ، وخش المكابرة من جهة المسرفين على أنفسهم ، حتى بلغ بهم جموح الفسوق أن يأتروا بالصادق الأمين ، يريدون ليقضوا عليه بزعمهم ، حاسبين أن انتهاء حياته انتهاء لدعوته : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » « وإذ يكررك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

فإذا الله العلى الأعلى يرسم لرسوله في هجرته الطريق ، ويجنبه عثرات الكيد ودسائس الحقد ، ويخرجه من بيته بالحق ، ليس معه إلا رفيق واحد هو أبو بكر الصديق ، ولكن هذا الرفيق صار بعد سنوات عشرات من الألوف عادوا ففتحو ديار الباغيين ، وضربوا خير القدوة في الصفع عن الخاطئين ، ونشروا ضوء الله في العالمين ، وتمت كلمة ربك حقاً وصدقاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين .

نعم كان يوم الهجرة يوم الإباء للضيم والترف على الظلم ،
وكان يوم الحفاظ على الحق المبين ، ينأى به صاحبه عن مواطن
التحيف والهضم ليعود به بعد حين قوياً فتياً ، عزيز الجانب ،
مشهود المواقب .

وكان يوم التضحية بحب المسكن ، وجوار الأهل ، وشهوة
التملك ، وعرض الحياة ، ل يتم ما هو أسمى من ذلك وأعلى ...
لتنصرف كلمة الله .

وكان يوم الاعتزاز بالإيمان مهما قلَّ أنصاره ، وكثرت حوله
أخطاره ، لأن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، ولأن الباطل
لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه : « الحق من ربك فلا تكونن
من الممترين » ، « فإذا بعد الحق إلا الضلال فأنتى تصرفون » ؟
وإن في يوم الهجرة بحوادثه وأحداثه ، ومقدماته وثمراته
كافي مواقف المسلمين الأولين الكثيرة ، لصوراً تبهر الناظر ،
وعبراً تثير الفنان والشاعر ، ودورساً يجب أن تعرض على أبناء
الإسلام ، في كل مكان وزمان ، لتثير فيهم معاني العزة ، والشهامة ،
والكرامة ، والإخلاص لله والوطن والجماعة .

* * *

والهجرة أنواع ، فهناك أولاً « الهجرة الطبيعية » التي
طبع الخالق الأعظم كثيراً من الكائنات عليها دون تصرف

فيها ، أو قدرة على تغييرها ، فالإنسان في هجرة دائمة منذ كان في الرحم ؛ فهو هناك في أول الأمر نقطة ، ثم يهجر حاله فيكون مضغة ، ثم يكون علقه ، ثم يكون لحما وعظما ، ثم يستوى خلقا آخر ، « فتبارك الله أحسن الخالقين » ؛ ثم يخرج الإنسان إلى عالم الوجود ، فيظل في هجرته الطبيعية الدائمة التي لا يستطيع لها تغييرا ولا تحويلا ، فهو طفل ناشئ ، ثم غلام يافع ، ثم شاب قوى ، ثم رجل فتى ، ثم كهل مكتمل ، ثم شيخ ضعيف ، ثم هرم متهدم ، ثم الخاتمة التي لا بد منها .

والطيور والأسماك طيلة حياتها في رحلات مستمرة ، تنتقل من مكان إلى مكان ، ومن جهة إلى جهات .

والشمس الكبيرة الضخمة تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدره ربه منازل ، فكل من الشمس والقمر له أفلاكه ومنازله ومداراته التي تهاجر من أحدها إلى الآخر .

والأجواء نفسها ، والفصول الطبيعية ذاتها تتمثل فيها الهجرة أيضا ، فالصيف يذهب ويهاجر بحره وقيظه ، ثم يقبل الخريف برطوبته وعواصفه ، ثم يعود فيرحل ويهاجر ، ويأتي الشتاء بقره وبرده ، ثم يهاجر ويقبل الربيع بنسيمه ولطائفه ،

وهكذا دواليك . . . فكل هذه المخلوقات تتغير وتبدل ،
والهجرة ليست إلا تغيرا وانتقالا من حال إلى حال ! . . .

وهناك الهجرة البشرية الحسية المألوفة ، وهي ترك الأوطان
ومفارقة الأهل والإخوان ، في سبيل مبدأ من المبادئ ،
أو رسالة من الرسائل ، أو غرض من أغراض الحياة ، وهذه
إما أن تكون فردية يقوم بها شخص بمفرده ، وإما أن تكون
جماعية تقوم بها طائفة من الناس ؛ والتاريخ مليء بأنباء الرسل
والأنبياء ، والصديقين والأولياء ، والفلاسفة والحكماء ، الذين
ضائق بهم ديارهم ، ونبت بهم أوطانهم ، فرحلوا وهاجروا ،
ولاقوا في سبيل ذلك ما لاقوا ، وخير هجرة تُذكر في هذا
المقام ، وسنام هذه الهجرات كلها هي هجرة أستاذ الدنيا وسيد
الوجود ومعلم البشرية : محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وهناك الهجرة المعنوية الروحية الخلقية ، التي يفر فيها صاحبها
من الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الكذب
إلى الصدق ، ومن الكفران إلى الإيمان ، ومن الرذائل إلى
الفضائل ، ومن الظلمة والدياجي إلى النور والضياء ؛ ولعل من
هذه الهجرة ما أُمِر به رسول الله عليه الصلاة والسلام في قول
ربه له : « وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » .

وقوله عز من قائل : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

والآن نتساءل : ما هو موقفنا من هذه الأنواع ؟ وكيف نهجر اليوم ؟ . من الواضح الذى لا يحتاج إلى بيان أنه لا حيلة لنا فى الهجرة الطبيعية ، لأنها عمل الخالق ، ولا حول ولا قوة للمخلوق العاجز الضعيف أمام حول الخالق القوى القدير ، وكل الذى يستطيع أن يكسبه الإنسان من مظاهر هذه الهجرة الطبيعية هى أن يتعظ بها ويعتبر ، فيعرف أن المتبدل المتغير هالك فان ، وأنه لا بد لهذه المخلوقات الكثيرة المختلفة من خالق باق دائم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم . . . وجبذا لو عرف الإنسان حق المعرفة أن ما هو فيه من حال اليوم لن يدوم ، وربما ذهب غدا أو بعد غد ، فينتهز الفرصة ولا يضيعها ، بل يستغل ما هو فيه من وضع أحسن استغلال ، فيأخذ من الصغر للكبر ، ومن الشباب للهرم ، ومن الصحة للمرض ، ومن القوة للضعف ، ومن الحياة للموت ، كما أرشد إلى ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فى بعض ما أثّر عنه من حديث شريف . . .

وكذلك من الواضح الجلى أننا قد حرمانا شرف الاشتراك

مع نبى الإسلام عليه أزكى الصلاة والسلام حين خرج مهاجرا من مكة إلى المدينة ، وحيل بيننا وبين هذا الشرف إلى الأبد ، لأن الرسول قد قال لمن عاصروه ولمن يأتى بعدهم : « لا هجرة بعد الفتح » . .

ولكننا قد نستطيع ما هو أقل درجات من هذه الهجرة ، وهو أن يهاجر المسلم المستعبد من بيئته التى يعيش فيها ، والتى تمتلئ بالسيئات والمنكرات إلى بيئة أخرى يستطيع أن يعبد فيها ربه كما يحب ، ويستطيع أن يبنى فيها بناء قويا لا خبث فيه ولا دخل ، ولعله من الخير أن نستذكر هنا قول الحق تبارك وتعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا ؛ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

وإذا كنا لا نستطيع أن نبلغ الغاية في الهجرة الحسية
لأسباب وموانع كثيرة ، فأماننا ميدان الهجرة الروحية النفسية
الخلقية ، قد بسطه الله لنا بسطا ، ومده أماننا مدا ، والرسول
الكريم هو الذى يقول : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »
وهو الذى يقول . « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ،
وإذا استنفرتهم فانفروا » .

ومعنى هذا أن ملاك الأمر كله فيما نحتاج إليه من هجرة هو
النية الخالصة ، والرغبة الصادقة فى إرضاء الله تعالى ، والانتهاز
عما حرمه ، والخضوع لما أمر به ، ويوم نفعل ذلك نكون
قد هاجرنا ، وكُتبتنا عند الله من المهاجرين .
فهل نحن فاعلون ؟ . . .

يوم الإسراء والمعراج

يكاد الثلث الأخير من شهر رجب الفرد يقبل على المسلمين ، حتى يأخذوا في الحديث عن الإسراء والمعراج ، والاستعداد لمناسبتهم بما ألفوه من ألوان الذكرى والاحتفال ، فهذا قد نذر أن ينحر ذبيحة ، وذلك قد اعتزم أن يقيم احتفالاً كبيراً ، وهؤلاء قد قرروا أن يفتحوا على الناس فيضامن البحوث والخطب والقصائد ، وهم كشأنهم دائماً ، يظنون طيلة الأيام صامتين أو غافلين ، حتى تقبل المناسبة فيحدثوا الضجة وينصبوا « الزفة » ، فإذا ما انتهت رجعوا سيرتهم الأولى ، وما جاءت ملة محمد العظيم عليه الصلاة والسلام ، لتكون حلة أو شارة أو تجارة تروج في موسم أو مناسبة ، ثم تركد أو تكسد في بقية الأوقات والمناسبات ، بل جاءت لتحيي الرفات ، وتبعث الأموات ، وتحرك القلوب ، وتهز الجنوب ، وجاءت لتكون مصدر الحرارة الدائمة ، ومنبع القوة الدائمة ، فلا تكف عن الدفع إلى الأمام ، ولا عن إلهاب الخواطر والأفهام ، ولا عن تشغيل السواعد والأقدام ، في سبيل الله: سبيل الحق

والخير ، وفي سبيل دعوته: دعوة العدل والبر : « لا تدع مع الله
إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم
وإليه ترجعون » !.

هذا مثلاً حادث الإسراء والمعراج ، هو واضح في الملة كأنه
الشمس في منتصف النهار ، يتحدث عنه القرآن كما تتحدث عنه
السنة ، وخلاصته أن الله سبحانه أسرى بعبده محمد ليلاً من
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ، ثم عرج
به إلى السموات العلى ، ليريه من آيات ربه الكبرى .

وكان الإسراء والمعراج بالجسم والروح ، وإلما كان
الحادث معجزة ، ولما نزلت بشأنه فاتحة سورة تسمى سورة
« الإسراء » ، ولما تحدثت سورة « النجم » عن المعراج ، ولما
كان هناك مجال لتكذيب المكذبين واستبعاد المستبعدين .

ومن أعجب العجب أن يستلب حب الجدل والمراء عقول
الأكثرين ، فيتعبوا ألسنتهم ويرهقوا أعصابهم ، ويقلقوا من
حولهم بمحاوراتهم ومجادلاتهم حول حقيقة الإسراء ، متى كان ،
وكيف كان ، وهل يمكن أن يكون ؟ وما شابه ذلك من
حواش وذبول .

وقد كان جديرا بهؤلاء أن تنصرف همهم إلى تدبر العظات
والتماس الآيات في حادث الإسراء والمعراج ، للاتعاظ بمعانيه
والانتفاع بمغازيه ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ،
وما يذكر إلا أولو الألباب ! ..

لقد أسرى الله بعبده محمد جسدا وروحا من مكة إلى بيت
المقدس ، ليحل تلك الرحلة الطويلة مشاهدا دارسا ، ومتمعنا
فاحصا ، فلا يكتفى بهيام روحه في الآفاق ، ولا يقتصر على تصوير
الخيال أو حكم الأوهام ، بل يرى ويسمع ، ويلاحظ ويجمع ،
ويطأ بركابه أرضاً طويلة فسيحة ممتدة ، يريد الله للقلّة من
صحابته أن يفتحوها غدا باسم الله ، وأن يجعلوها خالصة
لوجه الله ، وكأن ذلك درس بليغ عميق موجه لأصحاب الخطرات
والأوهام ، وعبيد التخيلات والأحلام ، الذين يمضغون الأمانى
الواسعة الحرقاء كما تعلق الحيل للجم الحرساء ، دون أن
يفسكروا في تنفيذ أو إقدام ..

ومما يزيد ذلك الدرس عمقا أن الله اختار لنبيه أن يركب
في رحلته دابة هي «البُرّاق» ، وقد كانت قدرته سبحانه لا تعجز
أن تنقله في لمح البصر أو أقل منه؛ بلا براق أو ركاب ، ولكن ،

كأن الله يريد أن يعلمنا عن طريق نبيه اتخاذ الوسائل والتذرع بالأسباب ، وأى أسباب ؟ ! . .

إنه يريد منا أن نحرص على الأسباب القوية السريعة الموصلة ، ولذلك كان البراق مضرب المثل في السرعة كما تصوره السيرة ، فهو حيوان يضع قدمه حيث ينتهى بصره ، وإذا أخذ في هبوط طالت يده وقصرت رجلاه ، وإذا أخذ في صعود طالت رجلاه وقصرت يده ، وتبارك الله الخلاق القدير . . . وهذا صفى الرحمن ونبي الأمان ، وقائد الإنسانية والإنسان ، محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يصل بيت المقدس ، فيجمع له ربه النبيين والمرسلين ، وكوكبة من الملائكة المقربين ، ثم يجعله عليهم إماما ليشعرنا بذلك أنه إمام المرسلين وخاتم الأنبياء ، وأن دينه شمل سائر الأديان ، وأن أتباعه يجب أن يسودوا العالمين بشرعتهم وهديمهم ، لا بطغيانهم وتجبرهم ، فهم أتباع من ساد بفضل ربه الأوائل والأواخر : « ولا تنهوا ولا تحزنوا وأتتم الأعلى إن كنتم مؤمنين » . . .

ولعله مما يؤيد تلك السيادة أن الرسول ربط البراق في حلقة المسجد الأقصى ، وجعل بيت المقدس نهاية رحلته في الأرض وأول رحلته في السماء ، كأنه يريد أن يقول إن فلسطين واسطة

العقد في الوطن الإسلامي العزيز ؛ فيجب أن تُبذل في حفظها
وصونها المهج والنفوس .

وإن الشهداء والضحايا التي سقطت مجاهدة في أرض فلسطين ،
تنادى كل يوم من الأعماق ، وتصرخ من الأجداث ، مطالبة
بدمائها في أعناق الخونة المجرمين الذين طعنوها من الأمام
والخلف فأضاعوها ، وباعوها بيع السباح في سوق الدناءة واللؤم .

* * *

وما أروع هذا التصوير التأديبي الأخاذ ، الذي يعرض
لنا جهات الشر في أقبح الصور وأنكر الأشكال ، وهي تبدو
أمام الرسول عليه الصلاة والسلام في مظاهر رمزية ولوحات
معبرة آسرة ، فتثير غضب الإنسان واشمئزازه ، وتجعله يفر
من قبح الشر وخساسته إلى جمال الخير ورفعته . فهذه مثلاً
هي الدنيا تتبدى للرسول عجوزاً قبيحة شماء لم يبق من عمرها
إلا النزر القليل ، ولكنها تناديه لتلفته عن رسالته فلا يستجيب ؛
وهؤلاء هم الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم ،
يبدون قوما لهم أظفار من نحاس ، يخمشون بها وجوههم
وصدورهم ، وهؤلاء هم الذين يقولون مالا يفعلون ، يبدون
أناساً تُقرض شفاهُهم بمقاريض من نار . وهؤلاء هم الذين

يتركون الحلال ، ويأتون الحرام ، يظهرون في صورة
أناس يتركون اللحم الناضج الطيب ، ويأكلون من اللحم
الجثث المتن ...

ويظهر الذين يأكلون الربا في صورة أقوام بطونهم مثل
البيوت . لا يستطيع أحدهم النهوض ، وتطوهم السابلة ...
ويظهر الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً في صورة أناس
مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ، ويلقمون أحجاراً
تخرج من أدبارهم !. ولا عجب فهم « إنما يأكلون في بطونهم
ناراً ، وسيصلون سعيراً » . وتظهر الداعرات اللاتي يزين
ويقتلن أولادهن نساء معلقات من أندائهن في الهواء ؛ وهؤلاء
هم الهمازون العمازون ، يظهرون في صورة أقوام يقطع من
جنوبهم اللحم ويلقموه ، ويقال لكل منهم : كل كما كنت تأكل
لحم أخيك ...

ويظهر المانعون للزكاة في صورة قوم على أقيالهم رقاع ،
وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون
الضريع والزقوم . وهذا قاطع الطريق يبدو كخشبة على الطريق ،
لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقة ... إلى غير
ذلك من صور لا يسمعها ذو الإحساس أو يتخيلها إلا وتنفر

نفسه نفوراً شديداً من هذه المقابح ومرتكبها ، خشية أن يصير يوماً إلى ما صار إليه هؤلاء من خسران وهوان ! . . .

* * *

ويعرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى ، ليشاهد ما يشاهد ، مما أجمله القرآن وأبهمه ، فكيف لنا نحن أن نفصله أو نرسمه ؟ . . . ثم أصبح بعد هذا كله مع قومه ؛ أفترأ يخشى أن يقص على الناس النبأ العجيب والحديث الغريب ؟ .. أفترأ يخاف لوم اللأئمين ، أو سخرية الساخرين ، أو استهزاء المستهزئين ، والله يقول له : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين » ؟ ! . . . لا والله لن يكون منه خوف ولا إحجام ، بل جرأة في الحق وإقدام . . .

تحدثنا السيرة أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لما عاد بعد الإسراء والمعراج قص على « أم هانئ » ما حدث ، فاستعظمت وإن لم تكذبه ، وخافت عليه من المشركين واستهزائهم إذا سمعوا القصة ، فتعلقت بردائه راجية تقول له : أنشدك الله يا ابن عمي ، لا تحدث بها قريشا فيكذبك من صدقك من قومك ! . . . ف ضرب يده على ردائه ، وانتزع منها في قوة ، وخرج مصرأ على التبليغ مهما كانت العاقبة : « والعاقبة للمتقين » . . . وقص على الطاغين قصته ، فاتخذوه غرضاً لسفاهتهم ، وهدفاً

لتطاولهم وسخريتهم ، ولكن ، في طوفان التكذيب الكاذب لا بد من مبصرين مصدّقين ولو قلة ، ولا بد من مؤمنين بالحق البادى ولو كانوا ضعافا ، فهذا مثلاً أبو بكر الرزين العاقل نراه وسط الممعة التكنذية السفهية يصدّق ثم يصدّق ثم يصدّق ، حتى يقول له الرسول عليه الصلاة والسلام . يا أبا بكر ، إن الله عز وجل قد سماك الصّدِّيق . . .

* * *

لقد رحل محمد بجسده — بعد أن امتلأت روحه نوراً وطهراً — من مكة إلى بيت المقدس - وما أطولها من شقة — في جزء من ليلة ، فكيف لا نرحل في سنوات من ظلام الباطل والضلال إلى نور الهداية والإيمان ؟ ولقد فتح محمد بيت المقدس بداية واحدة ، فكيف أضعنا بيت المقدس وما حوله ، ومعنا المدافع والدبابات ، ومن خلفها سبعة جيوش طويلة عريضة ؟ ولقد عرج محمد إلى السموات العلا ليزداد رفعة وعلواً ، فكيف ينزل بعض الناس إلى الحضيض مرحلة بعد مرحلة ؟ . .

إن الباب مفتوح ، وموعد الإغلاق مجهول ، واللبيب من سارع . فليت كلا منا يبذل طاقته ، ويسعى جهده ، ويحقق في دنياه ما يستطيع من محامد الفعال وكريم الأعمال ، والله في عون العاملين .

يوم الفرقان

« يوم بدر » في تاريخ الدعوة الإسلامية كالبدر
 في منتصف الشهر ؛ كان الظلام من قبل ينشر رداءه ،
 هنا وهناك ، فجاء البدر الساطع الباهر بضوئه ، فجاء
 وجلاء ، وكان الكفر قبل « بدر » ينشر ظلامه وقمامه ، ويث
 عوائقه وألغامه ، فجاء « يوم بدر » على الباطل ، فجعله بإذن الله
 مدحورا : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل
 كان زهوقا » .

ولولا أن الله قد كتب لعمر رضى الله عنه من التوفيق ما كتب
 حتى جعل « يوم الهجرة » بدءا للتاريخ في الإسلام ، لكان من
 حق يوم بدر أن نؤرخ به ، ولولا أن التسمية بيوم بدر اشتهرت
 بين المؤرخين لكان من حق تلك الغزوة الأولى في الإسلام
 أن نسميها : « يوم الفرقان » ، وبخاصة بعد أن سمّاها التنزيل
 المجيد كذلك : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى
 الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

و « الفرقان » كلمة تدل على مبالغة الفرق بين شيئين ، ومن

هنا سمي القرآن فرقانا : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » ، وذلك لأن القرآن الكريم نور يفرق بين الهدى والضلال ، وسميت الملائكة بالفارقات : « الفارقات فرقا » ، لأنهم يفصلون بين الأشياء حسب أمرهم ربهم . وسمى عمر بن الخطاب بالفاروق ، لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، حينما اعتزت الدعوة بإسلامه ، فخرجت من طور الاستخفاء والكتمان إلى طور الظهور والإعلان .

و « يوم بدر » كان بحق وصدق « يوم الفرقان » ، لأنه أول موطن في الإسلام فرق الله به بين الحق والباطل ، بحوله وقوته ، وتأيدته ونصرته ، وتبليته ورعايته : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » . .

وكان يوم بدر يوم الفرقان ، لأن الله تعالى قد فرق فيه بالحق بين القلة المسامة المستضعفة المستذلة فى الأرض ، وبين الكثرة الكافرة الباغية الطاغية على العباد ، فإذا الدنيا ترى ذلك المستضعف الذليل وقد سار علياً عزيزاً ، منتصراً كريماً : « ولقد نصركم الله يدر وأتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

وترى الكافرَ الطاغِيَّ الباغِيَّ وقد انقلبَ خاسثًا ذليلاً ، مندحرا مكسورا : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » ؛ وحينئذ عرفت الدنيا أن الأمر كله بيد الله تعالى ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وكان «يوم بدر» يوم الفرقان بين الغنى^١ المستكثر بعدده وعُدته ، وسلاحه وشوكته ، وبين الفقير المؤمن المدرع^٢ بيقينه وعقيدته ، فقد خرجت قريش بجيئها وخيلائها ، وشبابها ونسائها ، ومقاصفها ومعازفها ، وسلاحها وعتادها ، وزهوها وكبريائها ، وفي ألف من عددها ، كل منهم شاكي السلاح كامل العدة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وهم بحاجة إلى الرواحل والسلاح والعتاد ، حتى جعل محمد — فيما يُروى — يدعو من أجلهم قائلا : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فاشبعهم » ! . فماذا كان ؟ فتح الله لهم يوم بدر ، ورجع أصحاب محمد بالنصر والأجر ، والغنيمة والذخر : « ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علما » .

وكان «يوم بدر» يوم الفرقان ، إذ استبان فيه الحد الفاصل

بين الكَذَبةُ الأَدعياءُ ، المتفاخرين بالباطل ، المجتمعين على
الإثم ، المتداعين باسم المنفعة والشهوة ، فتحسبهم جميعاً وقلوبهم
شتى ، وتراهم كثيرين وأفئدتهم هواء ، وبين المؤمنين برهم ،
الواثقين بنصر خالقهم ، الموقنين بأن الله معهم ، سيوفهم
ويؤيدهم ، ويدافع عنهم ، ويبطش بعدوهم : « فلم تقتلوهم
ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ،
وليبلئ المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم » . .

فبينما كان سيدنا محمد يقضى حقَّ الرجاء والاستعانة والمناجاة
لربه بمثل قوله : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن
تهلك هذه العصاة لا تُعبدُ في الأرض » ، نراه يعطى القدوة
في اليقين والثقة وحسن الاعتماد على الله ، فيقول لأصحابه :
« سيروا على اسم الله ، فقد رأيت مصارعَ القوم » ، ويردد
قولَ ربه : « سيُهزم الجمعُ ويولون الدبر » .

* * *

وفي ليلة بدر يضع محمد يده على الأرض قائلاً : « هذا
مصرع فلان (من المشركين) إن شاء الله تعالى غدا » . ثم يضع
يده على جزء ثانٍ من الأرض قائلاً : « وهذا مصرع فلان
إن شاء الله تعالى غدا » . ثم يضع يده على جزء آخر من الأرض

ويقول : « وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا » . . .
فوالذى بعثه بالحق شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجا منيرا ، ما أخطأوا تلك الحدود ، ولا جاوزوا
تلك المواضع ، بل جعلوا يُصِرَّعون عليها ، واحدا بعد واحد ،
بل شيطاننا بعد شيطان ، وألقوا فى حفرتهم ، وأقبل عليهم
النبي يناديهم بأسمائهم ، ويقول لهم : « هل وجدتم ما وعد ربكم
حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا ؟ » .

فقال له بعض أصحابه : أتكلّم أجسادا لا أرواح فيها ؟ .
فأجاب : « ما أنت بأسمع منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا
على » . . وصدق التنزيل المجيد : « وما ينطق عن الهوى ،
إن هو إلا وحي يوحى » ! . .

وكان يوم بدر يوم الفرقان بين المتجرين بعرض الحياة
الزائل ، الحراص على عاجل اللذات وباطل الشهوات ، المتمسكين
بالعيش فى الدنيا يروونه غاية النعيم ؛ وبين المخلصين للعبادى ،
الذائدين عنها ، الفانين فى سبيلها ، الراغبين فيما هو أعلى من الدنيا
وأبقى من أيامها : فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى ،
« وإن الدار الآخرة لهى الحيوان^(١) لو كانوا يعلمون » .

(١) أى الحياة الخالدة الكاملة .

كان عمير بن الحمام رضى الله عنه على مقربة من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم بدر ، فقال الرسول قبيل القتال ، يجرّض أصحابه : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، والذى نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير : بخ بخ ! . . . فقال الرسول : لم تبخبن يا عمير ؟ . . فقال : رجاء أن أكون من أهلها ؛ فقال له الرسول : فإنك من أهلها . .

فأخرج عمير تمرات ، وجعل يأكل منها استعانةً بها على الجهاد ، ثم قال وكأنما يحدث نفسه : أفا بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ .. ثم رمى التمرات من يده وقال : والله لئن بقيت حتى آكلها إنها لحياة طويلة ! ! ! . . . وأخذ سيفه ، وخرج فقاتل القوم حتى سقط شهيدا ، فكان من أهلها ! ! ! . .

نعم كان يوم بدر يوم الفرقان ، ولا زال صالحا أن يكون بذكره ووجيه يوم فرقان ، ولو أعد المسلمون ليوم بدر عذته ، وقابلوه بما هو أهل له ، من تبصر واستذكار واستيحاء ، وأخلصوا النية فى الاقتداء بأهل بدر فى الثقة والإيمان والوفاء ،

لكان لهم يومُ فرقان : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » .

* * *

هذا حديث الرمز والإشارة إلى يوم الفرقان : يوم بدر ؛ ولكن هذا اليوم له قصة ، فيها وقائع وأحداث ، فكيف وقعت ؟ .. وكيف سارت ؟ ..

قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته وأتباعه ثلاثة عشر عاما في مكة قبل الهجرة ، يراوح الناس ويغاديهم بدعوة ربه التي تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وكان رسول الله خلال هذه المدة يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، ولكن المشركين لم يسمعوا ولم يطيعوا ، بل لم يقفوا على الحياد تجاه الدعوة الإلهية المجيدة ، فأخذوا يعارضونها ويناثونها ، ويطربصون بها الدوائر ، ويصبون ألوان العذاب والاضطهاد على الرسول وقومه ، والمسلمون صابرون محتملون .

وبلغ العدوان مداه ، ووصل الظلم قفاه ، فاجتمع فراعينُ الإشرار والكفر في « دار الندوة » ، وقرروا في مؤامرتهم

التخلص من محمد عن طريق قتله بأيدي شباب يمثّلون القبائل المختلفة ، حتى يضع دمه بين القبائل .

وأعلم الله رسوله بما دبر المجرمون ، وأوحى إليه بالهجرة ، فاستجاب لتوجيه ربه ، وهاجر بعد أن هاجر أكثر أتباعه الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

وفي المدينة بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى المجتمع الإسلامي الأول ، بعد أن تنفس المسلمون الصعداء من الأحوال التي ذاقوها على أيدي المشركين ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتذكر جيداً تلك الأفاعيل السود التي فعلها الكفار بالمسلمين ، وكان كذلك يتذكر جيداً أن المهاجرين قد اضطروا إلى ترك أوطانهم ومساكنهم ، وديارهم وعقارهم ، وكثير من ممتلكاتهم ، وأن المشركين قد استبدوا بهذه الممتلكات ، فكان لابد من تعويض عن هذه الخسائر ، وكان لابد من تأديب لهؤلاء الذين مازالوا يقفون حجرة عثرة في طريق الدعوة الإلهية ، ومن ردع لهؤلاء الذين مازالوا يترصون بها الدوائر ، ويصدون عن سبيلها ، ويحولون بين الناس وبين الاهتمام بها أو الاستماع إليها .

ولذلك فكر الرسول في التعرض لقوافل المشركين المترددة بين مكة والشام ، والتي تمر على المدينة ذهابا ورجوعا ، بحكم أن المدينة تقع بين مكة والشام . وبسبب هذه الفكرة الحكيمة الرشيدة العادلة وقعت غزوة بدر ، التي كانت أول معركة دارت بين كتيبة الإيمان وجموع الشيطان .

كانت هذه الغزوة في السنة الثانية من الهجرة ، وفي شهر رمضان المبارك من هذه السنة . ولجلال هذه الغزوة وسمو شأنها سماها المؤرخون بطائفة من الأسماء تدل على خطرها وعظم شأنها ، فسموها غزوة بدر الكبرى ، وغزوة بدر العظمى ، ويوم وقعة بدر ، وسموها القرآن يوم الفرقان ، ويوم التقى الجمعان ، فذلك حيث يقول القرآن في سورة الأنفال : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

وبعضهم سماها : يوم البطشة الكبرى ، أخذاً من قول الله تبارك وتعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى ، إنا منتقمون » .

* * *

ولكن الرسول لم يبدأ في مقدمات هذه الغزوة إلا بعد استطلاع واستكشاف واستنباء ، فقد قضى الفترة التي أعقبت الهجرة وسبقت الغزوة في إرسال السرايا والطلائع التي يريد منها إشعار قريش بأن المسلمين لم يذلوا ولم يهونوا بسبب هذه الهجرة ، بل هم ما زالوا في تماسك وتعاون ، ويريد منها كذلك أن يعقد مصالحات ومعاهدات مع الذين يحيطون بالمدينة من جموع أو قبائل ، حتى لا تأتيه الطعنات من الخلف إذا ما بدأ الصراع مع المشركين وجها لوجه ، كما يريد التعرض لقوافل قريش لتعويض ما أخذوه .

وقد أرسل النبي في شهر رمضان من السنة الأولى عمه حمزة ابن عبد المطلب، ومعه ثلاثون فارسا من المهاجرين ، إلى ناحية تسمى « العيص » بالقرب من ساحل البحر ، ليعترض طريق قافلة كانت ذاهبة إلى الشام يقودها أبو جهل .

وفي شوال بعث النبي عبيدة بن الحارث ومعه ثمانون رجلا ، حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل « ثنية المرة » للاستطلاع والاستكشاف .

وفي طليعة السنة الثانية خرج النبي بنفسه حتى بلغ قرية « ودان » ، وعقد مصالحة مع « بنى ضمرة » ، وكتب عن ذلك

كتابا جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرة على من رامهم (أى هاجهم) ، إلا أن يحاربوا فى دين الله ، ما بَلَّ بحر صوفة (أى ما بقى فيه ماء يبل الصوفة) ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

وغاب النبى فى هذه السرية نحو خمسة عشر يوما بعيداً عن المدينة .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى بلغ النبى أن قافلة ضخمة لقريش اخذت طريقها إلى الشام ، وفيها ما قيمته خمسون ألف دينار ، وقد حملها ألف بعير ، ويقودها أبو سفيان بن حرب . فخرج الرسول ومعه نحو المائتين ، وسار حتى بلغ « العشيرة » من « بطن ينبع » ، وهناك علم أن القافلة قد مرت قبل وصوله .

وحالف الرسول فى هذه السرية « بنى مدلج » .

وفى شهر رجب أرسل النبى عبد الله بن جحش الأسدى مع فريق من المهاجرين ، وأعطاه كتابا مختوما ، وأمره

ألا يفضيه إلا بعد يومين من مسيره في الطريق الذي عينه له الرسول . وبعد اليومين فتح عبد الله الخطاب فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نحلة بين مكة والطائف ، فترصد^(١) لنا قريشا ، وتعلم لنا من أخبارها » . فلما قرأ عبد الله الكتاب وعرف ما فيه ، سارع بالاستجابة قائلا : « سماع وطاعة » .

وحدثت مناوشة بين عبد الله وزملائه وبين قافلة لقريش ، ووقع شيء من القتال انتصر فيه عبد الله وزملاؤه ، وعادوا ببعض الغنائم ، فغضب الرسول من فعلهم وقال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ! . (يقصد شهر رجب) .

* * *

وجعل الرسول ينتظر عودة القافلة التي يقودها أبو سفيان من الشام إلى مكة ، ليتعرض لها ، ويستولي عليها كتعويض جزئي عن الأموال التي أخذها المشركون من المهاجرين ، وكان يقصد أيضا إضعاف الناحية الاقتصادية عند قريش ، لعلمه بأن هذه الناحية مرتبطة ارتباطا تاما بالناحية العسكرية ، فإذا ضعف

(١) أي كن على مقربة من قريش وراقب أحوالها .

التموين أو قل ، أثر تأميرا قويا في حالة القتال والحرب .
وأرسل النبي اثنين من صحابته ، هما طلعة بن عبيد الله وسعيد
ابن زيد ، ليستطلعا أخبار القافلة ، ويتربعا عودتها ، حتى يجبرا
الرسول عند اقترابها فيتعرض لها ، فخرج الصحابيان ونزلا عند
« كشد الجهني » في مكان اسمه « الحوراء » ، ولما علما باقتراب
القافلة سارعا بإخبار الرسول بذلك .

وانتهز الرسول الفرصة ، واستخدم عنصر السرعة ،
فلم يضع الوقت ، بل عجل باستدعاء المسلمين ليشاورهم ، حتى
لا يحسوا بأنه قد انفرد بالأمر وحده ، وإن كان نبيا ورسولا ،
فإن الله تعالى قد قال له : « وشاورهم في الأمر » ، وقال عن
المسلمين : « وأمرهم شورى بينهم » .

جمع الرسول المسلمين وقال لهم : « هذه غير قریش
(أى قافلته) ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله
ينفلكموها » (أى يجعل ما فيها أنفالا لكم ، أى غنائم
مباحة لكم) .

فاستجاب فريق من المسلمين للخروج ، ولم ينشط فريق
آخر لهذا الخروج ، وذلك لأن الرسول لم يفرض عليهم أن
يخرجوا . وظن الباقيون أن الأمر لا يزيد عن مهمة الاستيلاء

على القافلة ، وهى مهمة يسيرة ، لأن القافلة محروسة بنحو أربعين رجلا ، والذين استجابوا قد زادوا عن الثلاثمائة بقليل ، فلا داعى إذن للتعبئة العامة .

خرج الرسول بالذين استجابوا فى الثامن من رمضان ، بعد أن كلف عبد الله بن أم مكتوم بأن يصلى بالناس فى المدينة ، وجعل أبا لبابة واليا عليها ، وأذن لعثمان بن عفان أن يبقى لتمرير زوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال له النبي : « إن لك أجر رجل وسهمه » .

وكان عدد الخارجين مع الرسول ثلاثمائة وخمسة ، ومعهم سبعون بعيرا ، فكان الثلاثة أو الأربعة منهم يشتركون فى ركوب البعير الواحد ، فيركب الأول مسافة وينزل ، ثم يركب الثانى ، ثم يركب الثالث ، وهكذا . واشترك النبي مع على بن أبى طالب ومرثد ابن مرثد الغنوى فى ركوب بعير ، فقال على ومرثد : « يا رسول الله ، اركب ونحن نمشى عنك » ، فرفض الرسول ذلك ، وأبى إلا أن يأخذ حصته من المشى كما يأخذان ، وقال لهما : « ما أتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لقومه بالفوز والتوفيق ، فيقول لربه جل جلاله كما تقدم : « اللهم إنهم حُفَاة

فاحملهم ، اللهم إني أعوذ بك من عراة فاكسهم ، اللهم إني أعوذ بك من جياع فأشبعهم .
وهذا الدعاء يصور الحالة الاقتصادية السيئة التي كان عليها المسلمون
والتي نشأت بسبب اضطراب المسلمين إلى المهجرة ، وبسبب
استيلاء قريش على ممتلكات المسلمين المهاجرين .

ولما بلغ الرسول مع قومه المكان الذي كان مقدراً أن تمر
منه القافلة ، علموا أن أبو سفيان قد نجا بها ، لأنه سلك بها
طريقاً آخر . .

فكيف كان ذلك ؟ . .

كان أبو سفيان يحس في أعماق نفسه بأن المسلمين
سيترصدون له ، وأنهم إذا استطاعوا الوصول إليه فسيستولون
على كل ما معه ، ولذلك كان يتحسس الأخبار وهو في طريقه
بالقافلة . وحدث أن سأل أبو سفيان بعض الأعراب الذين لقيهم
في الطريق : هل شاهدت أحداً ؟ . فأجابه بأنه لم ير سوى
رجلين ألباً بالماء فاستقيا منه ، ومعهما بعيران لهما ، ثم ارتحلا .
فذهب أبو سفيان إلى ناحية البئر ، وبحث في الأرض فوجد
فيها بعرات ، ففتّ بعضها بيده فوجد فيها نوى يثرب ، فأدرك
أن الرجلين من المسلمين ، وأحس أن هناك حركة تتبع له ،
فسارع بأخذ القافلة بعيداً عن الطريق المألوف ، واتجه بها نحو

الساحل حتى يسير بها في طريق غير مألوف ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ، ليخبر أهلها بأن مجدأ وقومه يترصدون بالقافلة ، ويريدون الاستيلاء عليها ، ولذلك يلزمهم أن يسارعوا بالاتجاه إلى القافلة لحمايتها . وعجل ضمضم بالذهاب إلى مكة حتى بلغها ، بعد أن قطع أذني بعيره ، وجدع أنفه ، وحوّل رحله ، ووقف فوق الجمل بعد أن شق قميصه من خلف ومن قدام ، وجعل يهتف ويصيح :

« يا معشر قريش ، يا أهل مكة ، اللطيمة اللطيمة (أى القافلة فيها التجارة) ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث ! . واستجابت قريش لدعوة الشر ، وزادهم تحريضاً أبو جهل اللعين ، حتى أجمعوا على الخروج ، حتى إن أبا لهب لما عجز عن الخروج أوجبن عنه أرسل نائباً عنه هو العاص بن هشام في مقابل أربعة آلاف درهم ، كان العاص مديناً بها لأبي لهب ، وعجز عن سدادها .

ولما هم أمية بن خلف أن يقعد جاءه عقبة بن أبي معيط ومعه بجمرة فيها بخور ، وجاء أبو جهل ومعه مكحلة ومرود ، ووضع عقبة البجمرة بين يدي أمية ، وقال له مستهزئاً ومعرّضاً

يا أبا على ، استجمر ، فإنما أنت من النساء ! . وقال أبو جهل :
 اكتحل يا أبا على ، فإنما أنت امرأة !! .
 فثارت نفس أمية ، وخاف من الفضيحة والعار ، وقال
 لمن حوله : اتباعوا لى أفضلَ بعير فى الوادى .

* * *

وندع هذه المجموعة المشتركة التى قاربت الألف تتابع
 خطواتها الأثيمة نحو بدر ، ونعود لنرى ماذا صنع الرسول
 وصحابته . . .

لقد بلغوا طريقَ القافلة وبخثوا عنها ، ثم عرفوا أنها أفلتت
 وضاعت من أيديهم للمرة الثانية . وبينما هم فى تفكير وتأمل لما
 حدث ، بلغهم أن قريشا قد خرجت تريد غزو المسلمين
 والتنكيل بهم ، تأديباً لهم على تفكيرهم فى التعرض للقافلة . . .
 وهنا جاء الموقف الحاسم . .

لقد خرج المسلمون فى عددهم القليل الذى عرفناه ، وكل
 فكرتهم عن الأمر أنهم سيعترضون القافلة ، ويستولون عليها
 فى مقابل ما أخذته منهم قريش .

ولكنهم بعد خروجهم عرفوا — كما رأينا — أن القافلة

قد فرت ، وأن قريشا قد خرجت لقتالهم ، فإذا يكون من المسلمين ؟ .

أيرجعون أم ينتظرون ؟ ... إن عددهم القليل سيلاقي ، إذا انتظروا ، قريشا بعددها وعدتها ، وبخيلائها وبغيها ، فالموقف دقيق ، ولكن التقهقرا أشد خطراً ، وأسوأ عاقبة ، لأنه سيورث مسبة وتوهيناً ، وبذلك لا تعلق كلمة المسلمين .

فلا بد إذن من الصبر ... وليكن ما يكون ! .
وقال أصيحابي : الفرار أم الردى ؟

فقلت : هما أمران أحلاهما مر

ولكننا أمضى لما لا يعينني
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

وأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يستشير قومه ، كعادته دائماً ، لا يحب أن ينفرد برأى ، ولا أن يفرض وجهة ، ولا أن يسوقهم إلى خطة ، فقال مستشيراً ومثيراً :
إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فما تقولون ؟
العير أحب إليكم من النفير ؟ ! .

فقال المقداد بن عمرو :

يا رسول الله ، امض لما امرك الله ، فنحن معك . والله

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ! ولكننا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، مادامت منا عين تطرف ، فوالله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد (بلد بالحبشة) لسرنا معك ! .

وبدا السرور على وجه الرسول من هذه الإجابة وتلك الحماسة ، ولكنه عاد يقول مرة بعد أخرى : أشيروا على أيها الناس ! .

لقد سمع كلمة المهاجرين . . . سمعها صريحة جريئة مدوية ، ولكنه أراد أن يسمع كلمة الأنصار ، وكان حريصاً على أن يسمع هذه الكلمة ، لأن المعاهدة التى عقدها مع الأنصار فى بيعة العقبة قبيل الهجرة كانت تفيد أن ينصره الأنصار إذا هوجم داخل المدينة ، تخاف الرسول أن يظن الأنصار أنه يسوقهم إلى حرب لم يتفقوا عليها ، لأنها خارج المدينة ، وهم قد عاهدوه من قبل على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على نضال أو كفاح خارج المدينة ، ولذلك أراد أن يستوثق من موقفهم ، ويتأكد أنهم حين يخرجون إلى الغزوة ، يخرجون

باختيارهم وموافقهم ، وبذلك تصدق موافقهم ، وثبت أقدامهم في سبيل الله .

ولذلك قال سعد بن معاذ الأنصارى حينما سمع هذا السؤال يتكرر من الرسول : لعلك تريدنا معاشر الأنصار يارسول الله ؟ . فقال النبي : أجل ! .

فقال سعد : يارسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا ، عني السمع والطاعة ، ولعلك يارسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاطعن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت كان أحبَّ إلينا أخذه مما تركت ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإنا لصُبرٌ في الحرب (جمع صبور) ، صدُق في اللقاء (جمع صدوق) ، لعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله تعالى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى
 الطائفتين : العير أو النفير ، فوالله لكأنني أنظر إلى مصارع
 القوم » ! .

وهكذا تكون الثقة ، ويكون الإيمان بعون الله ونصره ،
 فالرسول يحدد لهم المعركة لم تبدأ بعد ، فيقول لهم كأنه يرى الآن
 الأماكن التي ستهوى إليها رقاب أولئك الكافرين المشركين ،
 بعد أن يصيبهم الخذلان ، وتلحقهم الهزيمة ، وتدور عليهم الدوائر ،
 وينزل المسلمون فيهم تقيلاً وتدميراً ، جزاء البغي والطغيان
 اللذين كانا من أئمة الشرك والكفران .

وهكذا انطلق الجيش كله مؤمناً موقناً واثقاً ، قد اجتمع على
 كلمة واحدة ، ووجهة واحدة ، وقائد واحد ، وهدف واحد ،
 هو إغزاز الحق ، وإبطال الباطل ، والاتصاف من البغاة الظالمين .

* * *

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فريقاً من أصحابه بأن
 يقوموا بحركة استطلاع واستكشاف واستنباء ، فوجدوا غلامين
 في بعض الجهات ، فأحضروهما إلى الرسول عليه الصلاة والسلام
 فأخذ يسألهما ، يريد أن يستنبط منهما أخبار قريش والمشركين ،

وسألها عن عدد الخارجين من قريش ، فقالا له : لا ندرى ! .
فسألها : كم ينحرون من الذبائح في اليوم لأجل طعامهم ؟
فقال الغلامان : إنهم ينحرون يوماً تسعاً ، وينحرون يوماً عشراً .
فاستنجد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك عددهم ، فقال :
القوم بين التسعمائة والألف . ذلك لأنه أدرك أن الذبيحة تكفى
في العادة مائة أو نحوها .

ثم سألها النبي عمن خرج من كبار المشركين ، فذكر له
أسماء فريق منهم ، فعاد النبي يثير عوامل الشجاعة والاهتمام
في نفوس أتباعه ، فقال لهم : هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

* * *

ونعود لنرى ماذا كان من شأن أبي سفيان . .
لقد نجا بالقافلة ، إذ جانب بها نحو الساحل ، وابتعد كثيراً
عن الطريق المألوف ، واستطاع أن يهرب بما فيها .
ولما اطمأن إلى نجاة القافلة عاد فأرسل رسولا ثانياً إلى أهل
مكة ، يقول لهم إنه لا داعي للخروج ولا للرحيل ما دامت القافلة
قد نجت وسلمت .

ولكن أيرضى الغرور والكبرياء بذلك ؟

أقبل الطغاة من المشركين أن يستعدوا للقتال ، ثم يعودوا
بلا نزال ؟ .

لقد عارض أبو جهل اللعين في العودة وقال : والله لا نرجع
حتى نرد بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثًا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ،
ونسقي الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا
وجمعنا ، فلا يزالون يهابونا أبدًا بعدها ! .

وسارت قريش إلى موطن القتال يغيها وغرورها وكبريائها،
ولمادنوا من مكان المسلمين أرسلوا عمير بن وهب الجمحي يستطلع
لهم الأخبار ، فجال حول معسكر المسلمين من بعيد
جولات ، وعاد يقول للمشركين عن المسلمين :

إنهم ثلثائة أو يزيدون قليلا ، أو ينقصون قليلا ، لا كمين
لهم ولا مورد ، ولكنهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم ، فلا يموت
الرجل منهم قبل أن يقتل رجلا مثله ! .

. ونزل الرسول عليه الصلاة والسلام بقومه عند أول ماء
قابلهم قرب بئر بدر . وكان بعد هذا الماء أما كن أخرى للماء
تقع بين المسلمين والكافرين ، فجاء الحباب بن المنذر إلى النبي
صلوات الله وسلامه عليه وقال له : يا رسول الله ، أرايت هذا
المنزل الذي نزلته ، أهو منزل أنزلك الله ، فليس لنا أن نتقدمه

أو تتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ .
 فقال عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.
 فقال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض
 بالناس حتى تأتى أدنى ماء (أقرب ماء) من القوم (المشركين)
 فنزل ، ثم نعور ما وراءه من القُلْب (أى نقطع أماكن المياه
 بعضها فى بعض ، حتى يسيل الماء كله فى مجتمع واحد) ، ثم نبى
 عليه حوضاً فملاؤه بالماء ثم نقاتل القوم (والماء من ورائنا جميعه)
 فنشرب وهم لا يشربون ! .

ورأى النبی أن هذا هو الرأى الرشيد ، فلم يكبر عليه أن
 يرجع إليه ، وأن يأخذ به ، فنفذ ما أشار به الحباب ، معلنا أن
 الأمور تعالج بالشورى ، وذلك لأن الله تعالى يقول له :
 « وشاورهم فى الأمر » ، ويقول عن المؤمنين : « وأمرهم شورى
 بينهم » .

وهكذا نرى أن المسلمين كانوا يعرفون تأثير «التموين» فى تسيير
 المعركة ، وفى طليعة مواد التموين الماء ، فهم قد حرصوا على
 أن يجعلوا مكان الماء كله خلف ظهورهم وفى حمايتهم ، ولا يكون
 عند المشركين أو فى حوزتهم منه شئ ، وبذلك يستطيع المسلمون

أن ينتفعوا بالماء شرباً وسقياً واستعمالاً ، بينما لا يستطيع
المشركون أن ينالوا منه شيئاً .

وفي أول المعركة قال الصحابي سعد بن معاذ : يا بني الله ،
بنى لك عريشا تكون فيه ، ونُعيدُ عندك ركائبك ، ثم تلقى
عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ،
وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلاحقت بمن وراءنا من
قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا بني الله ما نحن بأشد حبالك
منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، ينعك الله
هم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

وهنا اثني النبي صلى الله عليه وسلم على سعد بن معاذ ، لأن
كلماته تدل على وفاء للرسول وإعزاز لشخصه ، وقبل الرسول
بناء العريش والبقاء فيه ، لكي يستطيع إدارة المعركة منه ،
ولكي يشرف على الميدان فيستطيع تدير ما يلزمه ، ولم يكن
هذا عن خوف من الحرب ، أو خشية النزول إلى الميدان ، فقد
كان صلوات الله وسلامه عليه أشجع الشجعان ، وكان فتى الفتيان ،
وكان يلتحم في المعارك مع أعدائه ، حتى ليقول الإمام
على بن أبي طالب رضى الله عنه في ذلك : كنا إذا اشتد البأس

اتقينا برسول الله عليه وسلم ، فإ يكون أحد أقرب إليه منا !

* * *

وتراءى الجمعان ... ولا بد لكى تشتعل المعركة من شرارة
تشعلها ، فكيف جاءت هذه الشرارة ؟ ! .

لقد اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف
المشركين إلى صفوف المسلمين ، يريد أن يبلغ الحوض الذى فيه
الماء لكى يهدمه . ويظهر أنه اختار ناحية ضعيفة من النواحي ،
لا يوجد فيها حراسة أو رقابة شديدة ، ولكن حمزة
ابن عبد المطلب لحظه وهو يتقدم نحو الحوض فطعنه ، فأصاب
الطعنة ساقه ، ولكن المشرك العنيد أصر على مواصلة الاقتراب
من الحوض ، يريد أن يحدث فيه تزلزلاً ، فعاجله حمزة وضربه
ضربةً قضت عليه .

وهنا اندلعت نار المعركة ، وخرج من صفوف المشركين
ثلاثة من العالقة ودهاقين المشركين ، هم : عتبة بن ربيعة ،
وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة بن ربيعة ، وطلبوا المبارزة
من المسلمين . . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار أهل المدينة ،
فرفض المشركون أن يقاتلوهم ، وقالوا : نريد أكفاءنا من
أبناء عمومتنا (يقصدون المسلمين المهاجرين من أهل مكة) ،

وقالوا : ما لنا من حاجة إلى هؤلاء ، إنما نريد قومنا ! . فنأدى
النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، وحمزة
ابن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وأمرهم بالخروج إليهم ،
فقضى الثلاثة المسلمون على الثلاثة المشركين فى جولة سريعة ،
دون أن يصاب المسلمون بسوء . عدا أن عبيدة أصيب بجرح
فى ساقه من عدوه . وتروى السيرة فى بعض مصادرهما أن
الرسول عليه الصلاة والسلام جاء إلى عبيدة ، وأدنى خده
من ساقه الجريح ، وقال له : أشهد أنك شهيد ! .

* * *

وكانت رؤية الدماء كفيلاً بالتحام الفريقين فى قتال عنيف ،
وكان ذلك صبيحة الجمعة السابع عشر من رمضان للسنة الثانية
من الهجرة .

وهكذا شهد رمضان : شهرُ الصوم والجوع والتخفف
من المتاع ، معركةً بين الحق والباطل ، أراد الله لها أن تكون
جولة أولى ينتصر فيها المسلمون ، فيعز دينهم فى الأرض .

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول : اللهم هذه
قريش ، قدأت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولاك ، اللهم
فنصرَكَ الذى وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصاة اليوم
لا تعبد فى الأرض .

وانخرط الرسول في الدعاء حتى أشفق عليه أبو بكر الصديق ، وحتى سقط رداء النبي من فوق كتفيه ، فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك . ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ظل يدعو ، ثم خفق خفقة يسيرة برأسه ، رأى خلالها ما وعده ربه من نصر ، فانتبه منها مستبشراً ، وقال محرضاً على القتال ، ومثيراً على الجهاد ، وواعداً بحسن الثواب : والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

وأعطى المسلمون أولئك المشركين دروساً لا تنسى في الإقدام والثبات والحرص على الجهاد أو الاستشهاد ، ورأينا في هذه الغزوة المباركة كيف أقدم كفتيان ، هما ابنا عفراء ، فقتلا عدوَّ الله أبا جهل . وجاء النصر عاجلاً سريعاً بمقتضى هذا الإيمان الوافر ، وذاك الحرص البادى على الشهادة ، وذلك الاستخفاف بالحياة ومتاعها ، وتنزل قرآن الله عز وجل يصور هذه المعركة ؛ وتضمنت سورة الأنفال هذا التصوير ، وحسبنا أن نورد من السورة هذه الآيات البيّنات . . ومن شاء الاستقصاء رجع إلى مصادره .

يقول الله تبارك وتعالى. «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله ،وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ،ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ، إذ يريكم الله فى منامك قليلاً ، ولو أراكم كثيراً لفشتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور .

وإذ يريكمهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور، يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ؛ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى

ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم . ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

ونستطيع أن نقول ، إن غزوة بدر كانت فتحاً مبيناً في تاريخ الإسلام ، فهي على الرغم من عنصر المفاجأة وقلة المجاهدين من المسلمين فيها ، قد وصلت بالمسلمين إلى نتائج هامة ، منها أنه قد استقر بها وضع المسلمين وقوى جانبهم ، وانكسر المشركون أمامهم لأول مرة ، فأخذ المسلمون يدركون عملياً أنهم قادرون على الوقوف في وجه الشرك لتأديبه وتقليم أنظاره . بعد أن زالت الهيبة الكاذبة للمشركين من نفوس المسلمين المستضعفين بالأمس .

وكانت غزوة بدر بداية انطلاق موفق في نشر الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي ، وكانت تزكية لأصحابها خير تزكية ، حتى قال النبي الكريم : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال « اعملوا ما شئتم ، فإني قد غفرت لكم » .

ولو لم يؤرخ المسلمون بيوم الهجرة ، التي كانت فاصلة بين عهدين ،

لكان من حتمهم أن يؤرخوا يوم بدر ، الذى سماه الله بحق
« يوم الفرقان » .

* * *

قُتل كثير من المشركين فى غزوة بدر ، بينما استشهد قليل
من المسلمين ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة . واختلف القوم
فى هذه الغنائم ، فقال المجاهدون ، نحن أولى بها لأننا قاتلنا ،
وقال المطاردون : نحن أولى بها لأنه قد شغلتنا المطاردةُ عن
جمع الغنائم ، وقال حراس العريش : نحن أولى بها فقد
شغلتنا الحراسة !.

وقال النبي : اتركوا كل شيء كما هو حتى يأتى حكم الله .
وجاء الحكم الإلهى فى الغنائم ، وقد أشارت إليه الآيات السابقة
فى صدرها ، فقسم النبي الغنائم على الجميع ، وأعطى حصّة
الشهيد من الغنائم لورثته ، وأعطى نصيبا لمن تخلف فى المدينة
وكان يقوم بعمل ، أو كان له عذر مقبول فى التخلف .

وكان هناك عدد كبير من الأسرى المشركين ، فوزعهم
النبي على الصحابة لحراستهم والقيام بأمرهم حتى يُفصل فى شأنهم
وقال لهم النبي : استوصوا بالأسرى خيرا ! .

ثم استشار النبي صحابته بعد ذلك فى أمر الأسرى ، فأشار

عمر بقتلهم ، لأنهم رمّوس الكفر وأئمة الضلال ، وأشار أبو بكر بفدائهم ، فقال النبي : مثل أبو بكر كمثل إبراهيم إذ قال : فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، وكمثل عيسى إذ قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ... ومثل عمر كمثل موسى إذ قال : ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، وكمثل نوح إذ قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .

ومال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبي بكر ، فأعلن أن كل أسير يستطيع أن يفدى نفسه بالمال ، أو بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، إذا كان يعرف القراءة والكتابة . وأطلق النبي سراح بعض الأسرى لعجزهم ، أو مراعاة لظروفهم ، وكان ذلك بموافقة الصحابة رضوان الله عليهم . ولكن القرآن جاء بخلاف ما حدث من تصرف في شأن الأسرى ، فقال القرآن : « ما كان لربي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » .

وتجلت الرحمة من النبي في أعقاب غزوة بدر ، فرفض أن يكون هناك تشفٍ أو تمثيل . ولقد جاء أحد الصحابة يسأل

النبي أن يأذن له في نزع ثنيتي سهيل بن عمرو - أحد الأسرى -
حتى لا يقوم خطيباً ضد النبي كما كان يفعل ، فرفض النبي ذلك
وقال : لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ! .

* * *

ونلاحظ في غزوة بدر كثيراً من الدروس العسكرية المفيدة ،
فهناك درس محاولة القضاء على القوة الاقتصادية المشركة ، لأن
ذلك يؤثر أبلغ التأثير في الناحية العسكرية ؛ وهناك درس
الشورى ، وهى هامة وضرورية في الحروب ، فرأينا الشورى
قبل القتال ، والشورى في أثناءه ، والشورى في أمر الأسرى ؛
وهناك درس الاستطلاع والاستكشاف ، إذ رأينا أن هذا يفيد في
تكييف المعركة وتدير أمورها ؛ وهناك درس السرية في التحركات
والعمليات ، فإن تجميع الماء قد قام به المسلمون ليلاً حتى لا يحس
به المشركون ، كما أمرهم النبي أثناء القتال أن يلتزموا الصمت ،
حتى يدنو أعداؤهم منهم ، فيفاجئوهم بالضرب عندئذ .
وهناك درس العدالة والتعميم في توزيع الغنائم ، ورعاية
الشهيد في أسرته بإعطائها حقه من الغنيمة لو كان حياً .
وهناك درس الإنسانية في الحرب ، فالرسول لم يقبل مبدأ

التمثيل بالعدو ، وعفا عن العاجزين الذين لم يُفسدوا ، بل
وجع القتلى من المشركين ودفنهم .

ولن نستطيع أن نحصى الدروس الكثيرة التي تضمنتها غزوة
بدر ، فالمجال محدود ، وفيض الغزوة غزير عميق ، فحسبنا أن
نقول إنها كانت فتحاً مبيناً ونصراً عظيماً ، وبداية مباركة لسلسلة
من الفوز والنجاح ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .



يوم الفطر

يوم عيد الفطر المبارك نحتفل بما نستطيع من مظاهر
 الفرح والاعتباط والتهنئة ، ومن حقنا أن نسر بذلك
 اليوم وأن نفرح ، إذ أمرنا الله مولانا عز وجل بالصوم
 فاستجبنا وصمنا ، وندبنا إلى قيام الليل فانتدبنا (أى استجبنا)
 وقمنا ، وحثنا على زكاة الفطر التي ترفع الصوم إلى محل القبول
 فسارعنا وأدينا .

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يختصنا الله يوم يحل لنا فيه
 ما حرم علينا بالأمس ، ويبيح لنا من لذائد الحياة الطيبة
 ومشتياتها المعقولة ما كنا ننظر إليه طيلة الشهر الماضي ، ونستطيع
 أن نمد إليه أيدينا فى الحفاء أو العلن ، ومع ذلك كان هناك
 ما يمنعنا منه ويصدنا عنه ، كان هناك صوت فى النفوس ينهانا ،
 كانت من فوقنا عين الله العليم الجبير ، الذى يعلم خائنة الأعين
 وما تخفى الصدور ، والذى نرجو رحمته ونخشى عذابه ، ونتقرب
 إليه بالصوم كى يجعلنا من عباده الصالحين ، ويحشرنا فى زمرة
 الأتقياء المقربين ، بفضلته وكرمه ، وله الحمد فى الأولى
 والآخرة .

لقد مَنْ الله علينا بالتوفيق في الصوم ، ثم أعقبه بذلك الفضل في العيد ، فما أجددنا بأن نشكره ونثنى عليه الخير كله ، وبأن نعاهده مفاهدة الأخيار الأبرار الأحرار على الاستقامة مع دينه ، والاحتفاء بظل كتابه ، والافتداء بهدى رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل الدائب لوجهه الكريم الذى أشرقت له الظلمات ، وصلاح به أمر الدنيا والآخرة ، حتى يصدق علينا قوله عز من قائل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم . إن من حَقكم أيها الصائمون — وقد أدبتم واجبكم ، وفزتم فى معركتكم ضد الأهواء والشهوات خلال رمضان المبارك وانتصرتم على أنفسكم الأماراة بالسوء ، وقويتم إرادتكم ، وأيقظتم الجوانب الربانية المضيفة فى صدوركم ، وأقبلتم على حمى ربكم — أن تُظهروا الزينة ، وتبدوا التجميل ، وتلهوا فى العيد لهوا طيبا ليس بخبيث ولا بحرام ، وتوسعوا على أنفسكم وأهلكم نوعا ما فى الطعام والشراب والثياب ، بلا إسراف

أو تبذير أو غيلة : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » .

نعم ، لكم هذا يا أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وعليكم بجواره أن تظهروا عظمة الإسلام وقوة أهله وصفاء طبيعته في يوم العيد وفيما بعده ، فلا تقتربوا منكراً ولا تأتوا إثماً ، ولا تشهدوا فجوراً ، ولا تمشوا في الأرض مرحاً ، ولا تظهروا ترفا زائداً أو فجوراً مبيناً ، وإذا ما سلكتم فجاج الأرض متقلبين هنا وهناك ، فاصطحبوا معكم ضمائرهم وعقولكم وإيمانكم ، واذكروا أن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى المسجد يوم العيد من طريق ، ويعود من طريق آخر ، فقال العلماء — كما روى في زاد المعاد — إنما فعل ذلك ليسلم على أهل الطريقين ، أو لينال الفريقان بركته ، أو ليقضى حاجة من له حاجة منهما ، أو ليظهر شعائر الإسلام في سائر الفجاج والطرق ، أو ليغيظ المنافقين برويتهم عزة الإسلام وأهله وقيام شعائره ، أو لتكثر شهادة البقاع له ، فإن الذهاب إلى المسجد إحدى خطوتيهِ ترفعه درجة ، والأخرى تحط عنه خطيئة ...

فها نحن أولاء نرى أن القصد من السير والتنقل كان كريماً

موصول الأسباب برضا الله عز وجل ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يمش في الأرض مرحا ، ولم يسلك السبل المتعددة ليزهو أو يتكبر ، بل فعل ذلك ليأتى معروفاً ، ويتقرب من الله درجات فوق درجات ، فعلى أتباعه المحبين له المخلصين لدينه ودعوته أن يهتدوا بسنته ، وأن يذكروا كلمة الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « ما تمتع الأشرار بشيء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه تقوى الله » ! .

والمسلمون القادرون يعرفون ما يعاينه الفقراء والمعوزون في يوم العيد من ضيق ذات اليد ، وضيق ذات النفس ، فعلى هؤلاء القادرين أن يكونوا سماحا كرماء ، يمدون أيديهم بالإحسان للفقير والمسكين والمحتاج ، ويمسحون بأيديهم الناعمة دموع أولئك الحيارى من البائسين الأشقياء ، حتى تكون الفرحة في يوم العيد جامعة شاملة ، فتسرى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأضواء العلوية التي تغمرهم برضا الله ونعمائه ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط .

وليس من الإيمان أن يمتلئ السلم ويرفل في الجديد ، وإلى جانبه ساغب أو عريان ، ولقد صور أحد الأدباء ما يكون بين أطفال الناس من تفاوت في العيد ، وما ينبغي من تعاونهم على

الخير واشتراكمهم في السراء ، فهو يقول : « لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع في سماءها نجمان مختلفان : نجم سعود ونجم نحوس ، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأودية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتمايل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوما هادئا مطمئنا تتطير فيه الأحلام الجميلة حول أسرهم تطير الحماة البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الآخر فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى ، يئنون في فراشهم أنينا يتصدع له القلب ، ويدوب له الصخر ، حزنا على أولادهم الواقفين بين أيديهم ، يسألونهم بالسنتهم وأعينهم : ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزینون بها مناضدهم ، فيعملونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها . . .

فهل لأولئك السعداء أن يعدوا إلى أولئك الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم السعيد النزر القليل مما أعطاهم الله ؟ . . . إن رجلا يؤمن بالله ورسوله وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبه قلبا يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينيه من البكاء ، ولا قلبه من الحفقان ، عندما يرى في يوم العيد — في طريقه إلى مسجده ،

أو منصرفه من زيارته — طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال
 دامة العين ، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران
 خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسهم
 وفقرها ورثاة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به
 أيديهن ، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم
 بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع
 له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة
 التي يشعر بها في أعماق قلبه ، عندما يمسح يده تلك الدمعة
 المترقرة في عينيها !! . . . حسب البؤساء من محن الدهر
 وأرزائه أنهم يقضون جميع أيامهم في سجن مظلم من بؤسهم
 وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام
 مرة أو مرتين .

وما لنا نذهب في التماس العظة بعيدا . . . إن في الإسلام
 من العظات والعبر في هذا الباب ما يبلغ القلوب فيصلها بنور الله
 عز وجل ، ويهديها سواء السبيل . .

فهذه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كانت تأتيها
 الأموال والخيرات من هنا وهناك ، فتأخذ في توزيعها
 حتى تنتهي منها وإنها لجائعة ، فلا تفكر في أن تبقى لنفسها

ما يذهب بجوعها . . وقد تكون محتاجة إلى ثوب ، وقد يكون بين يديها أثواب ، فلا تدخر احدها لنفسها !!! .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقف يوم العيد ، فيخطب في القوم حائلا لهم على التقوى والإحسان ، ثم ينتهي إلى النساء ، وفي صحبته بلال مؤذن السماء ، فيأمرهن بالصدقة وتقديم الخير ، ويبسط بلال رداءه ، ليتلقى فيه مايجود به هؤلاء النساء ، فتلقى هذه بقرطها ، وتلك بنحاتها ، وتلك بمالها ، حتى يكاد يمتلىء ثوب بلال من هذه الحلى التي قدمها خالصة لله ورسوله !!! .

فلا تكونوا يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أقل همة ، وسارعوا بإحسانكم وطيباتكم إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، وتذكروا ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس ، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصلُّوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة

ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ، تُرزقوا
وتُنصروا وتُجبروا !!! » .

هيا الله لأبناء الإسلام من أمرهم رشدا ، ودفع بهم إلى
مواطن الخير والبر ، وأعاد عليهم مواسم الطاعات والقربات
وهم آخذون منها بأوفر حظ وأكرم نصيب ، وكتب لهم التوفيق
في أمرى الدين والدنيا ، إنه خير مستعان !!! .



أيام في ضيافة الرحمن

الجمع فريضة إسلامية ، بها تتم الفروض ويكمل الدين ، وهو دعوة من الله إلى عباده ، يدعوهم فيها إلى رحابه ، ويستقدمهم بها إلى جنابه ، ويستضيفهم حول بيته ، لتشملهم فيوض رحمته ، وتعمهم سحائب مغفرته ، ويتصلوا حسياً — بعد اتصالهم روحياً — بمنزل الوحي ، ومهبط السفير جبريل .

ومن عجيب صنع الله أنه قد جعل بيته هذا مثابة للناس وأمنأ وحرماً مقدساً طهوراً ، تنسى عنده الأحقاد والأضغان ، ويعم السلام والأمان ، ولكنه لم يجعل هذا البيت في ضخامة القصر الشاهق ، أو الصرح الباسق ، أو الطود السامق ، بل جعله في مظهره محدوداً متواضعاً ، ومع هذا ضمَّ في تواضعه الجلال والعظمة ، فأفئدة الناس تهوى إليه من كل فج عميق ، ورحالهم تشد نحوه من كل ركن سحيق ، وحول هذا البيت العتيق تتجمع القلوب كما تتجمع الجنوب ، وتتحد المشاعر كلها في مناجاة رب البيت سبحانه ، وتنحدر دموع الخوف والاستكانة ،

من عين الأمير المهيب ، كما تنحدر من عين الخادم الفقير .
ومن هذه الدموع المتحدرة حول هذه الأحجار الكريمة
العتيقة ، مع تلك الدعوات الهامسة تترجم عن آمال أصحابها ،
تتكون أروع صورة لخضوع العباد أمام سلطان المعبود
جلّ جلاله ، ولقد روى أن عمر قبّل الحجر الأسود وقال :
والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك . . . ثم بكى
وعلا نحيجه ، والثفت وراءه فرأى علياً ، فقال له : يا أبا الحسن
ها هنا تسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات ؟ .

والحج رحلة تباركها يد الله حينما يتوافر فيها إخلاصُ النية
وصدق التوبة ، وتمحيص الإنابة ، وما من موقف يتجلى فيه
التقاء أبناء الإسلام على العبادة والتعاون والاتجاه إلى الباري
الحلاق ، كما يتجلى ذلك في موسم الحج الأكبر ، الذي تتلاقى
فيه الأشباح ، وتمتزج الأرواح ، وتتوحد المشاعر ، ويعلو
الاهتاف الإسلامي المزلزل بصدقه وعمقه ، وكثرة مردديه :
لييك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وإن هذا المظهر الإسلامي الرائع بصورته وفكرته ،
الجليل في مبناء ومعناه ، ليجب أن يجدد على الدوام ما قد يبلى

من روابط الأخوة بين المسلمين ، ويبعث الهية منهم في قلوب الكافرين ، ويذكر الغافلين بأن الأرض لا تزال معمورة بكلمة الإسلام وجنود الإيمان ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة » .

ولقد أراد أحد الأتقياء الدعاة أن يصوّر غيظَ الشيطان اللعين بما يراه من جموع الحجاج ، مقبلين على ربهم ، ملبين من قلوبهم . فقال : إن الشيطان تراءى له في صورة شخص باكي العين ، ناحل الجسم ، أصفر اللون ، مقصوف الظهر ، فقال له التقى : ما الذي يبكيك ؟ . قال الشيطان : خروج الحجاج إلى الله بلا تجارة ، أقول : قد قصدوه ، وأخاف ألا ينحيهم ، فيحزنني ذلك . قال : فما الذي أنحل جسمك ؟ . قال الشيطان : صهيل الحيل في سبيل الله — عز وجل — ولو كانت في سبيل كان أحبَّ إلي . قال : فما الذي غير لونك ؟ . قال : تعاون الجماعة على الطاعة ، ولو تعاونوا على المعصية كان أحبَّ إلي . قال : فما الذي قصف ظهرك ؟ . قال : قول العبد لربه : أسألك حسنَ الخاتمة ، أقول : يا ويلتي متى يُعجب هذا بعملي ؟ أخاف أن يكون قد فطِنَ ! .

والحج فريضة لها آدابها ولوازمها ، وبدونها لا تؤتى ثمراتها ولا تظهر مغائرها ، فالحج يتطلب أولا من قاصده أن يفهم ما يراد منه ، فيجب أن يدرس المسلم الحج وأركانه وكيفية وغاياته ومقاصده الدينية والاجتماعية ، وأن توجد عنده بعد هذا الدرس رغبة وشوق ، لا أن يتحرك إلى الحج تحركا آليا ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

ثم عليه بعد ذلك أن يعزم على الأداء ، ويستعد لمفارقة الأحباء ، وتحمل المشقات والأعباء ، ثم يوثق علاقته بالخالق ، بعد أن يوثق نفسه من الحلائق ، وبعد أن يتوب توبة نصوحا ، ويرد المظالم والأمانات إلى أهلها إن كانت ، ويقضى ما عليه من ديون ، ويستوفي ما يلزمه من نفقة ، ويحسن اختيار الرفقة .

وحينئذ يدخل المسلم في عالم جديد ، فكأنما قد خلُق خلقا آخر ، فإذا تم له الحج وهو على تلك الحال فقد سلك نفسه في عداد الثابتين على العهد ، الحافظين للوعد ، الراعين للأمانات ، وقد يكون هذا مما يشير إليه حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

وعلى الراغب في أداء فريضة الحج أن يؤيد ما يعمر قلبه

وجنانه من عواطف الخير والتقوى ، بما يردده لسانه من كلمات البر والهدى ، وعبارات الرجاء والدعاء ، كأن يقول مثلاً وهو يبدأ سفره :

« اللهم أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل والمال ، والولد والأصحاب ، اللهم احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة ، اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض ، وتهون علينا السفر ، وأن ترزقنا سلامة البدن والدين والمال ، وتبلغنا حج بيتك ، وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إنا نعوذ بك من وعناء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال ، والولد والأصحاب ، اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ، ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك ، يا أرحم الراحمين » .

وليدكر الحاج دائماً وهو في البلد الحرام أنه يتقلب في بلد شهد مولد الرسول ومولد دعوته ، وفيه أول بيت وضع للناس ، وحماه أول بقعة يشيع فيها الأمان ، وتلوح أنوار الإيمان ، وتختفي نوازع الشيطان ، حتى لقد ذهب بعض الأئمة إلى أن الإنسان يؤاخذ ويعاقب بنيته إذا كانت سوءاً وهو بمكة .

فمن ابن مسعود قال : ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة ، وتلا قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . فليكن المسلم هناك صورة كريمة لحسن الفعل وحيد الحصال وجميل المقال ، ولم لا يفعل ذلك وهو في ضيافة الرحمن ، وعلى مقربة من مستقر حبيبه الأول محمد صلوات الله وسلامه عليه الذي قال : « من جاءني زائرا لا تهمه إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعا » ؟ . . . ولم لا وبقرب مكة توجد المدينة التي تضم رفات الرسول ، والتي يفوح منها شذا الذكريات ، وسير البطولات ، وأريج النفحات ، حتى ليمنى عمر في أخريات أيامه أن يسعد بالموت فيها فيناجي ربه قائلا : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وقلت حيلتي وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضئع ولا مقترط ، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ، واجعل موتى في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » .

ولا عجب ففي الحديث الحسن الصحيح : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت شفيعا له يوم القيامة » :

أما بعد فيا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليحذر كل منكم أن يشغله في أثناء حجه عن ربه شاغل ،
وإلا حبط الأجر ، أو نقص القدر ، ولقد حذرنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : « إذا كان في آخر الزمان
خرج الناس للحج أربعة أصناف : تخرج أغنياء أمتي للنزهة ،
وأوساطهم للتجارة ، وفقراءهم للمسألة ، وقرأوهم للسمعة » .
فاحذروا أن تكونوا أحد هؤلاء ، وثقوا أنكم إذا قصدتم
بالحج تقوية للبدن ، وتجديدا للخلق ، وتمحيصا للذنوب ،
وإخلاصا في التوبة ، وتعاوننا على البر والتقوى ، وتشاورا
في الصلاح والإصلاح ، وتلاقيا على الأخوة في الله ، فقد حققتم
الآمل ، وآنتمم العمل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ،
وإن الله لمع المحسنين » .

أيام المؤتمر الأكبر

الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليكشف
عن الناس الغُمة ، ويقضى على الظُّلُمة ، ويجمع



شتات الأمة ، ويوحد ما تفرق من الكلمة ، فكان الإسلام
الحنيف دينَ الجماعة والاجتماع ، وملةَ الوفاق والاتحاد ، وقد
شرع الله لتحقيق هذه الوحدة أموراً كثيرة من أمور الدين .

ولعل أقربها إلى الأذهان ، وأكثرها تكراراً على الأيام
ما شرع الله عز وجل من أمر الصلاة ، فهذه صلاة « الجماعة »
المقامة كل يوم خمس مرات ، تجمع أبناء الحى من أحياء البلد
في مسجدهم ، يتلاقون على الطهارة والطاعة ، ومناجاة الخالق
جل جلاله ، فيزدادون هداية وتعارفاً وتآلفاً .

وهذه صلاة « الجمعة » يوم الجمعة ، ينادى المنادى إليها ،
فيسعى أبناء البلدة كلها إلى مسجدهم الجامع ، يلبنون نداء الله ،
ويستجيبون لذكر الله ، ويلتقون في ساحة المسجد الواسع
مجددين الحمد لله ، والشكر على نعمائه ، ومؤكدين أخوتهم
في الله ، ومحققين قول ربهم تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا

إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع
 ذلكم خير لكم إلى كنتم تعلمون ، فإذا قُضيت الصلاة فانثشروا
 في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم
 تفلحون » ، وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ،
 واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
 فأصبحتم بنعمته إخواناً » . وقول رسوله الكريم عليه الصلاة
 والتسليم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »
 وقوله : « يد الله مع الجماعة » .

وفي يوم عيد الفطر ، يجتمع أبناء كل بلد إسلامي عقب
 شروق الشمس ، ذاكرين فضل الله عليهم ، أن وفقهم في صيامهم
 وقيامهم ، وتقبل منهم عبادتهم وزكاتهم ، وأتم عليهم فضله
 ونعمته ، فهم يهللون ويكبرون ، وهم يركعون ويسجدون ، وهم
 يستمعون القول الطيب فيخشعون ويستجيبون ، ذلك فضل الله
 يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم .

* * *

ثم يأتي الاجتماع الأعظم ، والمؤتمر الأكبر ، واللقاء
 الأنور . . . يأتي مؤتمر الحج المبارك الذي يجتمع أبناء الإسلام
 من مشارق الأرض ومغاربها ، ومن داني الأماكن وقاصيها ،

والذى يستجيب له المؤمنون من شتى فجاج الأرض ، فيسعى إليه الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، وكل قادر على الحنج مستطيع له ، ويسعى إليه كل منهم وهو فرح سعيد ، يغبطه غيره على ما نال من حظ وتوفيق .

ولا غرو فهو يخرج إلى نداء الله ، وإلى ضيافة الرحمن الرحيم ، وإلى ساحة الرضوان ، وإلى منزل الوحي ، ومهبط سفير الرحمن جبريل عليه السلام ، وإلى البيت الأول الذى باركه الله وطهره وشرفه : « إن أول بيت ومُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

ولم لا يكون السعى عاماً شاملاً كل مستطيع وقادر ، والله قد كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام منذ القدم بأن يؤدّن فى الناس داعياً إلى زيارة بيته والطواف حوله : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر^(١) يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ،

(١) بعير مهزول من بعد المسافة ، والفج العميق : الطريق البعيد .

ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام^(١) ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقتضوا نفثهم^(٢) وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حُنفاء لله^(٣) غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .»

* * *

ويلتقي أبناء الإسلام كل عام في هذا المؤتمر الإسلامي العالمي الجليل ، فيزدادون تعارفاً فوق التعارف ، ويضيفون تآلفاً إلى التآلف ، ويزكون أنفسهم ، ويطهرون قلوبهم ، ويستغفرون ربهم ، ويتدارسون أمورهم وشؤونهم ، ويتعاهدون على الحق والصدق ، وعلى التعاون في ميادين الخير والبر ، وعلى نصرته الإسلام والمسلمين ، ومناهضة أعداء الملة والدين ، والوقوف صفاً واحداً

(١) بهيمة الأنعام . الإبل والبقر والغنم .

(٢) ليقتضوا نفثهم : يزيلوا أدرانهم وأوساخهم .

(٣) حنفاء لله : مائلين عن الباطل إلى الدين الحق .

في وجه من يريد بهم شراً ، أو يضرهم كيداً ، أو يغتصب منهم حقاً ، حتى يكونوا في ديارهم وأوطانهم ، — كما خلقهم ربهم ، وكما أراد لهم — كراماً أحراراً ، أغزة أخياراً ، تقاة أبراراً^(١) » والله العزة ولرسوله وللمؤمنين « ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين « ، « وإن جندنا لهم الغالبون » ! .

هناك يلتقون في خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، يلتقون في مكة المكرمة : البلد الحرام الطيب ، الذي أعزه الله وكرمه ، ورفع عظمه ، وصانه وحرمة ، وحول البيت العتيق الحرام ، حول الكعبة التي شرفها الله أعظم تشريف فجعلها مثابة للناس وأمناً ، يفيئون نحوها ، ويتجمعون إلى جوارها ، ويعبدونه سبحانه متجهين إليها ، ويركعون له ويسجدون لجلاله من حولها ، « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

ومن بعد فرائض الحج يتجهون إلى دار الرسول عليه الصلاة

(١) المراد هنا تصوير ما يجب أن يكون عليه المسلمون في الحج دائماً .

والسلام : إلى المدينة المنورة ، البلدة التي آوت المسلمين ،
 ونصرت الإسلام ، وآثرت على نفسها في سبيل الله : « والذين
 تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ،
 ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم
 ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
 المفلحون » .

هناك في الحج يلتقون على ميعاد ، وعلى تطهر ومتاب ،
 في خشوع وخضوع ، فلا جدال ولا خصام ، بل عبادة وسلام :
 « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث
 ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ،
 وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الأبواب » . !
 هناك يلتقون من كل فج عميق ، دينهم الإسلام ، وشعارهم
 التوحيد ، فاللههم واحد ، ونبهم واحد ، وكتابهم واحد ،
 وقبلتهم واحدة ، وأمتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، نشيدهم
 المردّد المكرر هذا النداء : لييك اللهم لييك ، لييك لا شريك
 لك لييك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ،
 لييك اللهم لييك ، لييك وسعديك ، والخير كله في يديك ، لييك
 والرغبة والعمل إليك ! . . .

وإذا استلموا البيت الحرام قالوا كما قال رسولهم من قبل :
 باسم الله والله أكبر ، إيماناً بالله ، وتصديقاً لما جاء به محمد
 صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك ،
 والنفاق والشقاق ، وسوء الأخلاق . . . وإذا كانوا بين الركن
 اليماني والحجر قالوا كما قال نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام :
 اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، ربنا آتنا
 في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ! ! ! . . .
 وهكذا يواصل أبناء الإسلام - أو يجب أن يواصلوا - ما شرع
 الله من أعمال الحج في المشاعر الحرام ، وهم يمثلون هبة وإناية ،
 حتى يتموا حجهم المبرور ، فيعودوا أطهاراً كيوم ولدتهم أمهاتهم ،
 ويثقوا بثواب الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فقد قال
 صلى الله عليه وسلم : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ! . . .

* * *

ومن الواضح في الإسلام أن الله تعالى جعل لعباده في
 أيامه أعياداً ومواسم ، يتذكرون فيها نعماءه ، ويشكرون
 آلاءه . ويحمدونه أثناءها على توفيقه لهم في ميادين الطاعة
 والعمل الصالح ، والصفة الغالبة على هذه الأعياد والمواسم هي
 أن الحق تبارك وتعالى قد جعلها مناسبات لتجميع الأمة ،

وتأليف قلوبها ، وتوحيدها في عقيدتها وطريقتها ، وحرركاتها
وسكناتها ، والتسامي بها نحو الوحدة الإسلامية التي يريد الله
لعباده وأوليائه أن تكون متحققة فيهم على الدوام : « وإن
هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وأكبر عيد يجب أن تبدو فيه الأمة المؤمنة مجتمعة متلاقية
هو عيد الحج الأكبر الذي يمثل المؤتمر الإسلامي الأعظم .
حيث تخرج الألوف بعد الألوف من مشارق الأرض ومغاربها
ساعين إلى ربهم ، ليشهدوا منافع لهم ، وليذكروا اسم الله في
أيام معدودات ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق .
وقد شرع الله الحج ليكون رحلة خالصة مخصصة لوجهه
وفي سبيله ، تتوافر فيها رياضة الحس والوجدان ، والتجرد
من زينة الحياة ، والإقبال على طاعة الرحمن ، ولذلك كان في
الحج انتقال وارتحال ، وإعداد للزاد ، واحتمال لمشاق السفر
وتغير الأجواء ، وتجرد من متاع الحياة حتى في الثياب ، وإقبال
على الله بالحس والنفس ، والعمل والقول ، والذكر والفكر ،
فشعار المسلم منذ إحرامه هو نداؤه ودعاؤه . « لبيك اللهم
ليبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ،
لا شريك لك » .

ولذلك كان من أول ما يلزم للحج النية الطاهرة الصادقة ،
التي يعزم فيها المسلم على الرحيل إلى ربه بنفس مؤمنة ، وذات
تأبّة ، وهمة معرضة عن الشهوات والملذات ، مقبلة على الطاعات
والقربات ، لأنه سيحل ضيفاً على ربه عز وجل حول بيته الذي
جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، وبيت الله يحتاج في زيارته
إلى طهارة المظهر والمخبر .

وقد روى الإمام القرطبي عن حذيفة رضى الله عنه أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أوحى إلى : يا أبا المنذر ،
يا أبا المرسلين ، أنذر قومك ألا يدخلوا بيتاً من بيوتى
إلا بقلوب سليمة ، وألسنة صادقة ، وأيد نقية ، وفروج طاهرة ،
وألا يدخلوا بيتاً من بيوتى مادام لأحد عندهم مظلمة ، فأنى
ألغنه مادام قائماً بين يدي حتى يرد تلك الظلمة إلى أهلها
فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون
من أوليائى وأصفيائى ، ويكون جارى مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين » .

وإذا كان هذا يقال فى حق أى بيت من بيوت الله ،
فكيف بالبيت الحرام الذى يقول فيه بديع السموات والأرض
« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم

مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين
والعاكفين والركع السجود» ويقول فيه : « جعل الله الكعبة
البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك
لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل
شىء عليم . »

* * *

كما شرع الله الحج ليعلم عباده كيف يرفعون عن الأحقاد
والأضغان ، ويتناسون الشحناء ، ويزهقون روح الخصومة
والمعاداة ، ولذلك جعل الله موسم الحج فرصة للإخاء والصفاء ،
والتنزه عن الخلاف والاعتساف ، حتى فى الكلام والحوار ،
والتطهر من كل أسباب التمرد والانحراف ، ولذلك يقول الله
تعالى وهو أصدق القائلين : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض
فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا
من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون
يا أولى الألباب . »

وموسم الحج موسم أمان وسلام ، يأمن فيه كل فرد على
نفسه ومناعه ، وكلما تطلع المسلم إلى البيت الكريم قال كما كان يقول
عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم أنت السلام ، ومنك

السلام ، فحينئذ رتبنا بالسلام . بل إن الحمام نفسه -- وهو طائر ضعيف رقيق -- يأمن على نفسه ، فهو يطير هنا وهناك ، وينتقل من مكان إلى مكان ، لا يخشى أذى أو عدواناً ، وكيف يخشى ذلك وهو في الحرم ، وحول البيت الحرام ، وفي البلد الحرام ، وفي الموسم الحرام ، حيث لا يكون اعتداء أو انتقام؟ وهذا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يقول عن مكة يوم الفتح : « إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكة (أى لا يُقطع) ولا يُنْفَر صيده ، ولا تُلْقَط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها » ، أى لا يقطع نباتها الرطب الرقيق مادام رطباً -- يعنى مكة . .

وهؤلاء هم ضيوف الله حول بيته كأنهم في صلاة ممتدة الأجل طويلة الأمد ، فهم يتحركون ويذهبون ويحيئون ، وذكر الله هو الشغل الشاغل لهم ، وتصفية قلوبهم هو الأمر المسيطر عليهم ، وتطهير نفوسهم هو المقصد الأسمى من رحلتهم ، حتى يتحقق فيهم ومنهم الحج المبرور الذى يجعل المرء وكأنه قد ولد

من جديد ، مصداقاً لقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه :
 « ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » .
 ولعل هذا لا يبعد عن مجال الحكمة في أن يطوف المسلم
 حول الكعبة طاهراً متوضئاً كأنه في الصلاة ، وقد جاء
 في الحديث : « الطواف بالبيت مثل الصلاة ، إلا أنكم تكلمون
 فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم فيه إلا بخير » .

* * *

ألا ما أجملها من رحلة ، وما أكرمها من ضيافة ،
 وما أعظمها من نعمة ، وما أجمله من فوز مبين !!! يذهب
 المسلم الصادق إلى الحج فاذا وفقه مولاه جل علاه لتأدية الفريضة
 على الوجه الأكمل وصل إلى جملة أغراض وعدة مقاصد :
 إنه يسهم أولاً بشخصه — مع إخوانه في الله — في تطبيق الوحدة
 الإسلامية على أوسع نطاق مستطاع ، وهو يزور الأماكن
 الطيبة المقدسة صاحبة الذكريات الدينية المجيدة والنفحات الإلهية
 العديدة ، فيكون له من هذه الذكريات نور وضياء ، ومن
 هذه النفحات غذاء ودواء ، ومن التدبر والتفكير إيقاظ
 وإحياء ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهو يرى المشاعر الحرام فيزداد لدين الله إجلالا ، وعلى ربه إقبالا .. وهو يرى بعينه كيف انبعث دين الإسلام الهادي من جوف الصحراء ، ومن واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ، ومع ذلك عمر هذا الإسلام دنيا الناس بالخيرات والبركات ، وزانها بالطيبات والصالحات ، وأخرج من رمال الفياثي ومن جوف الحيام رجالا صاروا فرسان النهار ورهبان الليل ، فعلموا الدنيا كيف تكون القيادة الرشيدة والعبادة المجيدة ، والجهاد من أجل الحق والخير والعدالة والإخاء .. ومن ذا الذي يأتيني بمثل قومي ؟ .. من ذا الذي يستطيع أن يفاخرنا بأمثال محمد وحزبه ، وآله وصحبه ؟ .. من ذا الذي يستطيع أن يدلنا على قوم كهؤلاء الذين أعزهم ربهم بعزته ، ومجدهم بدعوته ، واختارهم لمرضاته ؟ ..

من ذا الذي يستطيع أن يفاخرنا كفخرنا بقوم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .. !
عجزت الدنيا — وحق خالقها — أن تنبت مثملا أنبت الله على يد الإسلام ونبي الإسلام وصحابة رسول الإسلام : « محمد

رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم
ركعا سجدا ، يتغنون فضلا من الله ورضواناً ، سيّاهم في وجوههم
من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل
كزراع أخرج شطاء فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ،
يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » . . . ! !



يوم عرفات

التاسع من ذى الحجة هو يوم الوقوف بعرفة ، **اليوم** والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » أى أن الحج الصحيح هو حج من أدرك عرفة ، وهذا الوقوف هو الذى يحقق أداء تلك الفريضة الكبرى التى كتبها الله تعالى على عباده ، وطالبهم بها عند القدرة عليها والصلاحيّة لها .

وفريضة الحج إلى بيت الله الحرام هى دعوة الله وضيافته منذ القدم ، ومنذ استجاب إبراهيم لأمر ربه تعالى ببناء الناس إلى بيته : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق^(١) » . والحج فى الإسلام ركن له شأنه ومكانه ، فلقد سئل رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ . قال : ثم حج

(١) الضامر : النافة الهزيلة من كثرة السير . والفج العميق : الطريق البعيد .

مبرور . وقال الرسول : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » . وقال : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وقال : « الحجاج والعُمرار وفد الله ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم » . وقال عن الكعبة : « هذا البيت دعامة الإسلام ، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله ، إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن رده رده بأجر وغنيمة » .

وفي الحج يلتقي المسلمون على ميقات معلوم ، ويأتون المناسك في أيام معدودة ، ليتعودوا الدقة في العمل ، والنظام في السلوك ، وهم يتجردون قبل الدخول في الحج من أعراض الحياة وأغراض الدنيا ، فيتركون زينة الثياب والمال ، ويمسكون عن اللغو والاهو والباطل ، ولا يتكلمون إلا بالخير ، ولا يعملون إلا الخير ، لأنهم حريصون على الاستعداد للقاء ربهم بالقلوب السليمة والنيات الخالصة والأعمال الصادقة : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

وإن الإنسان ليتطلع الآن بعين الخيال أو التصور فيرى

الجموع الحاشدة الزاحفة من كل فج ، وقد سعت إلى الجبل المبارك ، إلى عرفات . . . وقد تطهر الحبيص ، ثم استقبلوا القبلة ، وأخذوا في الدعاء والاستغفار والابتهاال ، يرددون ما كان الرسول يردده على عرفات ، وهو قوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . . . وهناك يجتمع الحبيص الذين كتب لهم ربهم النعمة ، وحفهم بالرحمة ، فوق الجبل الكريم المبارك عرفات . يقفون فوق ساحته طاعةً لأمر ربهم ، واستجابة لنداء رسولهم ، بعد أن زاروا مكة منزل الوحي ، وطافوا بالبيت العتيق الذى يقول فيه ربهم جل جلاله : « إن أول بيت وضع للناس الذى يبكى مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . وبعد أن سعوا بين الصفا والمروة : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

يقفون فى جلوة الشمس وصحوة الحر يقرعون أبواب السماء بالدعاء ، ويحجرون إلى ربهم بالتكبير والتهيل والابتهاال ، يسألونه

أن يغفر ذنوبهم ، ويتقبل متابهم ، ويتم حجهم ، ويردهم سالمين غانمين ، ثم يتذكرون وهم وقوف على الجبل ، من فوقهم السماء ، ومن حولهم الفضاء ، أن رسولهم صلوات الله وسلامه عليه وقف موقفهم هذا منذ مئات السنين ، وخطب في أتباعه خطبة الوداع التي وعها الزمان ورددتها الأيام ، وأبطل فيها الوثنية والشرك ، والربا والظلم ، وأنصف فيها النساء والضعفاء ، كما يتذكرون أن يومهم هذا قد نزل في مثله على رسولهم قول ربهم تبارك وتعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وهذه الآية نزلت على رسول الله في يوم عرفة ، وكان يوم جمعة ، وقد قال بعض اليهود لعمر عن هذه الآية : إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال عمر : وأى آية ؟ قال : « اليوم أكملت لكم دينكم » فقال عمر : إني والله لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت يوم عرفة ، في يوم جمعة .

ونحن نسأل الله أن يوفقنا ، فيربطنا بأسباب يوم عرفة ، وهو ذلك اليوم العظيم الذي قال فيه الرسول : « ما من يوم

أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادي ، جاءوني شُعْثًا غُبْرًا ضاحين^(١) ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي ، فلم يُرَ يوم أكثر عتقا من النار من يوم عرفة . ولقد خطب الرسول في الناس على عرفات قبيل الغروب فقال : « معشر الناس ، أتاني جبريل عليه السلام آنفا ، فأقرأني من ربي السلام ، وقال إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام ، وضمن عنهم التبعات » فقام عمر فقال : يا رسول الله ، هذا لنا خاصة ؟ . قال : هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر : كثر خير الله وطاب .

والوقوف على عرفات مشهد فريد له عظته وعبرته ، فكانه تصوير مصغر ليوم الحشر ، فالناس من كل لون ، والملابس خفيفة لا تعقيد فيها ولا زينة ، والكل قد تركوا الدنيا وراءهم بشواغلها وشهواتها ، وأقبلوا على الله يرجون رحمته ويخافون عذابه ، وكل منهم متلهف غاية التلهف على أن يقبله ربه بين

(١) الشعث : جمع أشعث وهو المتفرق الشعر . والغبر : جمع أغبر وهو من أصابه التراب . والضحى : الواقف في الشمس .

من رضى عنهم من عباده ، وأن يبعد عنه نعمته وعذابه ، والحر شديد ، والعرق يتصبب ، ومكة بما حولها أو قرب منها مشهورة بشدة صيفها وقسوة حرارتها ، وتظل الجموع هكذا حتى تغرب الشمس ، وحتى يختلط بياض النهار بسواد الليل ، فيهبط الناس من فوق الجبل وهم يتخذون من أملهم في الله وحسن ظنهم به ضياء أى ضياء ، ينير لهم الشعاب والمسالك مهما أظلم الليل أو انتشر السواد . . .

ثم يصلى الحجاج لربهم ، ويرمون بعد ذلك جمراتهم قائلين :
الله أكبر ، اللهم اجعله حجا مبرورا وذنبا مغفورا ؛ ثم يذبحون ذبائحهم ، ويحلقون رؤوسهم ، ويطوفون بالبيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، والذى نصبه للمسلمين رمزا وبقلة ، وشرفه بالإضافة إلى نفسه فقال : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

يوم الضحية



قيمة الحياة إذا لم يكن للمرء فيها عقيدة يجاهد من أجلها ، ويفرح لانتصاره في تحقيقها ؟ . وما منفعة العيش إذا لم يكن كفاحاً فيه تعب ونصب ، ثم يتبعه راحة فيها مسرة وهناء ؟ . وما جدوى السير الطويل في الصحراء الجرداء ، إذا لم يكن في نهايتها واحة خضراء ، يجد عندها المرء ما يتمنى من ظل وفاكهة وماء ! . . . ولهذا نضر الكريم الحليم أيام عباده المؤمنين بالأعياد ، تأتيمهم على ميعاد ، فيستريحون فيها ويهدأون ، ويلعبون ويظربون ، ويلبسون ويتزينون ، ويأكلون ويشربون ، ومع كل هذا لم يخلها سبحانه من حكمة باللغة وعظمة شافية ، فهذا عيد الأضحية مثلاً يقبل علينا بنوره وجماله ، ويهزنا بروعته وجلاله ، لكنه فوق هذا يعود باللبان وخواطرننا إلى الموقف الباقي على الزمن ، الخالد في التاريخ ، المردّد على شفَى الأيام ، موقف إبراهيم مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، يوم دعاها داعي الحق تبارك وتعالى إلى التضحية الكبرى ، والبذل الأعظم الذي لا غاية للبذل بعده ، فأصغيا للدعاء ، واستجابا للدعاء ، فكان ذلك منهما درساً للأجيال بعد الأجيال ! .

هذا شيخ جليل طاعن في السن ، هو إبراهيم خليل الرحمن ،
 جاهد في سبيل ربه ، واحتمل أذى قومه ، وغاضب أباه وهجره
 نصرة لدينه ، واحتمل عذاب النار في سبيل عقيدته وهو لا يدري
 أن الله سيجعلها عليه برداً وسلاماً ، ثم تزوج سيدة يرجو منها
 ولداً تقر به عينه ، فكانت عاقراً عقيماً لا تلد ، واشتد حنينه
 ورغبته إلى الولد ، فتزوج على الكبر بأخرى ، ويشاء الحكيم
 العليم أن يبدأ فيض النعمة عليه فيهبه مولوداً ذكراً ، وينشئه سليماً
 معافى ، ويجعله من صغره حليماً رشيداً ، ويضعه بين يدي والديه
 وحيداً فريداً ، فيصب الوالد الشيخ كل رحمة وعنايته وهمته
 في ولده الناشئ المترعرع ، ويرى شبابه وحياته تتجدد في إهاب
 غلامه ، فيرضى ويقنع ، ويشكر ربه ويخشع ، ويشب الغلام
 قوياً فتياً حتى يكبر ، ويبلغ مع أبيه مبلغ السعى والعمل ،
 ويستطيع السير والكسب والارتزاق ، وبذلك تتم النعمة
 على أبيه الهرم ، وهنا يبدأ الاختبار الإلهي والابتلاء الرباني ،
 فيكون مع إبراهيم فذاً عجيباً ، ولا يختار له موضعاً إلا الفقى
 المرجى المأمول ، ولا يأتى إلا فى أقسى الصور وأشد الأحوال ..
 لا يمرض الله إسماعيل ولا يميته ، بل ولا يكتب عليه قتلاً أو غرقاً ،
 أو شهادة ، بل يكتب عليه وعلى أبيه أن يُذبح على مرأى من والده ،

ويديده ، وبسكين فيها حز وقطع وضغط ، وفيها إمرار وتكرار . . . ومن ؟ . . من الشيخ العجوز الطاعن في السن ، الذى ترتعش يده بلا شيء ، فكيف بها فى قتل الوحيد الغالى . . . ؟ وبأى طريق يطلب منه ذلك ؟ ! ليس بطريقة الوحى المألوف فى وقت اليقظة ، بل بطريق الرؤيا فى المنام ، وحقيقة إن رؤيا الأنبياء وحى وصدق ، ولكن إبراهيم — لو أنه غير إبراهيم — كان يستطيع أن يتأول أو يخرج ، أو ينتظر قطع الشك باليقين ، ولكنه إبراهيم الخليل ، وابنه هو إسماعيل ذو اليقين ، والامر هو الله رب العالمين ، الذى له ما أعطى وله ما أخذ ، والذى يجب أن يسمع ويطاع ، وقد كان : « فلما بلغ معه السعى ، قال : يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

ولكن الله لما رأى منهما صادق الاستسلام ، وحسن الاستعداد للابتلاء ، رحمهما برحمته ، وجنهما الاكتواء بلهب محنته ، فنجاهما وأكرمهما ، وزاد لهما فى بره وعطفه : « فلما أسما وتلاه للجبين ، ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » . . .

ما الذى نستفيد من هذا الموقف الخالد المجيد؟ . . .
 نستفيد أن الحياة فى الحقيقة ملك خالص لله ، يتصرف فيها كيف
 يشاء ، وأن العبد بين أصابع ربه يقلبه كيفما أراد ، وأن حسن
 الاستجابة لأوامر الله فيه أمن ونجاة ، وأن الترحيب بالأقدار
 وعدم الفرار من شديد الاختبار ، يؤدى فى كثير من الأحيان
 إلى حسن النتائج وكريم العواقب . . .

وإن شمس العيد الأكبر لتطلع على مئات الألوف من المسلمين
 وقد تجمعوا فى منزل الوحي ومدرج النبوة وموطن الرسول
 عليه الصلاة والسلام ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله
 فى أيام معلومات ، فهم يعبدون ربهم بقلوبهم الطاهرة ،
 ويعظمون شعائره بنفوسهم الشاكرة ، ويحمدون فضله ونعمته ،
 أن وفقهم لحج بيته والاستجابة لدعوته ، فهم يكبرون ويلبون
 ويضحون ، راجين رحمة ربهم ، خاشين عقابه : « إنا نخاف
 من ربنا يوما عبوسا قطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم
 نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . وكذلك
 تطلع شمس هذا اليوم على مئات الملايين من المسلمين فى مشارق
 الأرض ومغاربها ، وهم يشاركون إخوتهم الحجاج فى الفرحة
 الكبرى بنعمة الله والشكر لآلاء الله ، فهم يضحون كما ضحوا ،

وهم يفرحون كما فرحوا ، وهم يلبون كما لبوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك لبيك » . وبهذه المشاركة تتجلى الأخوة في الله ، ويظهر اجتماع المسلمين حول دين الله ، فهم قلب واحد وشعور واحد مهما تعددت الأشباح أو تباعدت الديار ، و « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . و « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . ولقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان يقول : « إن تكن الدار من الدار بعيدة ، فإن الروح من الروح قريب ، وطير السماء على ألفه من الأرض يقع » . . .

وفي هذا اليوم السعيد المجيد يحسن بنا أن نتذكر قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شئت هو الأبر » . يقول الله لنبيه « إنا أعطيناك الكوثر » أى الخير الكثير فى الدين والدنيا ، أعطيناك الإسلام والقرآن والنبوة والرسالة والعلم والذكر الجميل والتوفيق لعبادة الله والوعد بالثواب الجزيل فى الآخرة والحوض المورود والنعيم المقيم فى جنات النعيم ، فاشكر ربك

على هذه النعم ، واعبد له لأنه أهل للعبادة دون سواء ، إذ هو
الخالق الوهاب المنان : « فصل لربك وانحر » أى اعبد عبادة
القلب والروح التى تتمثل فى الصلاة المقربة من الله ، الواصلة
بجماء ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، واعبد
عبادة الحس والمادة ، التى يمثلها النحر والتطوع بالأضحية .
ولا تبال يا محمد بأعدائك وشائئك ومبغضيك « إن شائئك
هو الأبر » ، إن مبغضك ومعاديك هو المقطوع الأثر ،
المقطوع الخير ، لن يبق وراءه خبر ، ولن يمتد له ذكر ،
وأما أنت فخبرك باق موصول ، وذكرك دائم مرفوع ، تمر
الأجيال بعد الأجيال ، والأذان يتردد فى كل مكان : أشهد أن
لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . ومئات الملايين
من المسلمين ترطب شفاهها كل يوم مرات ومرات بذكر اسمك ،
والصلاة عليك ، وتمجيد سيرتك العاطرة ، وإذا كان بعض
المجرمين من الكافرين قد قال عنك : إنه أبر ، لا ولد له ،
فاذا مات استرحم منه . فلا تحزن يا محمد ، فسيقى الله ذكرك
وإن لم يبق أولادك ، وسيقطع ذكر الآخرين من الآمين وإن
كان لهم الكثير من الأولاد ، وربك يفعل ما يشاء ويختار ! .
ومحمد صلوات الله وسلامه عليه هو زعيم هذه الأمة وقائد

تلك الجماعة ؛ فكان التوجيه أيضاً يشمل أتباعه . وكان الله تعالى يقول للمسلمين : إن لكم في رسولكم قدوة حسنة ، وقد أعطاكم الله ما أعطاكم من الصحة والأموال والأولاد والمثاع ، فاشكروا الله على نعمه وآلائه : صلوا له وأخلصوا العبادة لوجهه ، وضخوا له بما تستطيعون ، ولا تحزنوا ولا تضعفوا لأن هناك أعداء لكم ، بل أقبلوا على ربكم ، وهو الذى يعزكم ، ويقهر أعداءكم ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

* * *

ويوم العيد يوم ملحوظ فى السنة ، مذكور على الألسنة ، مجموع له الناس ، يتلاقون فيه على فرحة وبهجة ، ويتبادلون فيه تحية وتهنئة ، ويحسون عنده كأنهم قد انتهوا إلى واحة خضراء ممرعة ، بعد أن قطعوا من الطريق شوطاً أو مرحلة ، فهم يستريحون ويستجمون ، ويملاؤن صدورهم بنسمة الاطمئنان ونفس الرضى ، إذ هو يوم عيد ، والعيد يوحى بالعودة ، فهو يعود فى كل عام ، والثقة بالعودة أمر يجدد فى النفس الأمل ويقوى فيها الرجاء ، وهذه العودة المتكررة من العيد بعد كل مرحلة من مراحل النضال فى مجال العمل الدينى المخلص أو العمل الدينى الموفق توحى إلى الإنسان بتكرار المعاودة والمحاولة

لتحقيق ما يؤمن به من أهداف ومبادئ في هذه الحياة^(١) ،
وكما عاود الإنسان عملاً ونجح فيه جاء إليه عيد يستريح عنده
ويستجم فيه ، ثم يعاود القيام بواجبه ، والسعى في مسالك
الحياة ، للإنتاج والإثمار ، والنفع والانتفاع ، وهكذا دواليك :
عيد يقبل بالفرحة والبهجة ، وعودة من الإنسان إلى عمل موفق
يعقبه عيد بهيج : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله
لمع المحسنين » .

وهذه المعاودة في حياة الأفراد والجماعات هي التي تكون

(١) في الحديث : « من أحال دخل الجنة » أى من تحول من
الكفر إلى الإسلام ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن التضييع والإفساد
إلى العمل والاستعداد ، دخل الجنة . ولأن مادة « العيد » تدل على
العودة والمعاودة سمي العرب رئيس القوم « العود » تشبيهاً له بالرجل
المسن الذي عاود الأسفار والارتحال والأعمال مرة بعد مرة ، فهو كامل
الدربة والمران ، ويقولون : « هذا فرس مبدىء معيد » أى غزا عليه
صاحبه مرة بعد أخرى ، وقيل هو الذى أدبه صاحبه وريضة فهو طوع
أمره لا يجح به ، ويقولون : هذا رجل معيد ، أى حاذق عالم بالأمور .
وروى أن النبي قال : « إن الله يحب النكسل على النكسل . قيل : وما
النكسل على النكسل ؟ قال : الرجل القوي المجرب المبدىء المعيد ، على
الفرس القوي المجرب المبدىء المعيد » .

العادة ، والعادة تقارب الطبيعة ، ولذلك يقول الأول :
تعود صالح الأخلاق ، إني رأيت المرء يألف ما استعدا
وإذا كانت الأعمال التي يأتها الفرد أو الجماعة طيبة صالحة ،
وكان التكرار موصولا دائما ، أدى ذلك إلى تكوين مجموعة
من الفضائل يسمو بها الفرد وتعز عن طريقها الجماعة ، وهذه
الفضائل التي تعمق جذورها في النفوس هي ما يسمى بالأخلاق
الفاضلة ، وبهذه الأخلاق تعادل الحياة وتستقيم :
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وربما كان العمل الذي يكرره الإنسان ويحاول تعوده
عملا عسيرا شاقا في أول أمره ، ولكنه بالصبر عليه والتطلع
إلى غده المأمول يسهل ويلين ، وقد يرحب به صاحبه ويهش
له ، والأمم قد يصيبها الذل في عصور ضعفها وانحلالها ، فتألفه
بطول المدة ، ثم تهبط لها الأقدار أن تعرف العزة ، وربما أحست
بوطأة التبعات والتكاليف التي تقتضيها هذه العزة ، ولكنها
بعد أن تدرك سمو مذاقها وعظيم أثرها ترحب بهذه التبعات
والتكاليف ، وربما تطلبت منها المزيد . والمهم هو أن يكون
تصرف المرء ومعاودته للمحاولات والأعمال وتكراره لأداء
الواجبات ، مصحوبا بالإيمان والثقة في الله والاعتماد عليه

والاستمداد منه ، فالحديث يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله »
 أى لا توفيق فى الحركة والعمل إلا بمشيئة الله القوى القادر ،
 وفى الحديث : « اللهم بك أصول وبك أحول » أى أتحرك
 وأحتال لعلاج الأمور ، وفى رواية . « بك أصول وبك أحاول » .
 ولقد تعددت أقوال الناس فى تحديد السعادة ، ولكن هناك
 أفرادا منهم يعدون غاية سعادتهم فى أن يوفقهم ربهم للنهوض
 بما يجب عليهم أن ينهضوا به ، فيتعبوا فى ذلك ويعرقوا ،
 ويستنفدوا غاية جهدهم ، ثم هم يبلغون هدفهم ، ويحققون
 أملهم ، ويقفون عند نهاية الشوط فائزين ، وقد تصبب العرق
 منهم فكان وساما كريما لهم ، وحينئذ يحسون بنشوة الظفر
 ولذة الفوز وسعادة التوفيق لأداء الواجب ، وأمثال هؤلاء
 يلمحون الضوء خلال الظلمات ، ويؤمنون بأن من وراء الشدة
 متعة ونعمة ، وأن التعب هو الذى يجعل للراحة طعما ومذاقا ،
 وأن العسر يتلوه اليسر ، فتكون له قيمة ومكانة ، فهم يفرغون
 من واجب ليستقبلوا واجبا ، وهم ينتهون من مهمة ليستأنفوا
 القيام بمهمة ، يعمر صدورهم بالإيمان بالانتصار ، وتتألق نفوسهم
 بعلو المهمة وشرف المقصد ويقين الثقة بالله ، وهذا يفسره قول
 الله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا فإذا

فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » . وقد روى أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول : « أبشروا ، أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين » . وقال عبد الله بن مسعود : « لو دخل العسر في جحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه ، لأن الله يقول : فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » . وقال مجاهد : « يتبع اليسر العسر » .

والعيد يذكرنا - في لفظه ومعناه - بالعائدة ، والعائدة هي المعروف والإحسان ، تقول العرب : عاد فلان بمعروفه ، إذا أحسن مِم زاد ، ومن صفات الله تبارك وتعالى أنه « المبدئ المعيد » ، أى الذى يبدأ بالفضل مِم يعيده ، ولعل تذكير العيد لنا بالعائدة - وهى المعروف - هو بعض الحكمة فى تشريع الإسلام لزكاة البدن فى عيد الفطر ، حيث يعود المسلم القادر بهذا المقدار من الإحسان على إخوة له فى الله والوطن ، لم تتيسر لهم أسباب السعة فى الرزق أو الاستقرار فى الحياة ، وهو أيضا بعض الحكمة فى تشريع ذبح الضحية فى العيد الكبير - عيد التضحية - حيث يستطيع الفقير أن يتذوق اللحم الذى لا يستطيع تذوقه فى أغلب أيامه .

وحينما يقبل علينا العيد يحسن بنا أن نلقاه ونفرح به ونذكر

مذاقه ، ونهبي لغيرنا أن يشاركنا فرحته ، ولكننا بعد هذا يجب أن نعود إلى حسن المحاولة مع عمق الرجاء وقوة الأمل ، وحينئذ يعود علينا العيد بمشيئة الله القوى القادر ليرى أمة مسلمة عاملة مكافئة ، تتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، لأن الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ويتساوى أبنائها في مجال الحقوق والواجبات ، كل يبذل طاقته ، وكل يأخذ حقه وحاجته ، وأساس التقدير والتقديم فيها هو الاستقامة في مجال العمل ، وتجنب الزلل والخطأ : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . ويرى أمة يتشارك أبنائها في الخير والنعمة ، ويتساندون في البأساء والشدة لأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . ويرى أمة تنزه عن الفتنة والفرقة وإشاعة الفاحشة وإثارة الشهوات ، وتستمسك بالحق والجد ومكارم الأخلاق ومحامد الفعال ، حتى تتحقق منها وفيها تلك الأمة الوسط الصالحة المصلحة التي يصفها القرآن بقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وحين يعود العيد والأمة الإسلامية على هذا الوصف ، يعمر صدورها الإيمان ، وتزدان دنياها بالعمل

الصالح ، وتتواصى بالخير ، وتتناهى عن الإثم ، يحق للأمة أن تفرح بعيدها كل الفرحة ، وأن تتهيج به غاية البهجة ، إذ ستكون الأمة الراجحة الناجحة : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

إن الله تبارك وتعالى يعود علينا بالآلاء والخيرات فيجب أن نعود إليه بالصالحات والقربات ، وإن الزمان يعود علينا بالربيع الناضر فيجب أن نعود إلى الحياة بالأمل الباسم ، وإن الأرض تعود علينا بالثمار والحصاد فيجب أن نعود إليها بالغنى والرعاية ، وإن الحياة تعطينا فيجب أن نعطيها ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

* * *

وما دمنا قد تجددنا عن عيد الفطر وعيد الأضحى فقد يكون من المناسب أن نتحدث عن آداب الأعياد :
الأعياد أيام معلومة ، تمر على الأمة فتتلقاها لقاء خاصا ، لارتباطها بما تحبه وتجه ، من ذكريات عزيزة ، أو عقائد

كريمة ، فإذا مر بالأمّة عيد من هذه الأعياد تحرّكت عواطفها وانبعثت مشاعرها ، وأحست بهزة تنال عطفها ، وانتفاضة تشمل حسها ونفسها .

ولأبناء الإسلام أعيادهم ، فهناك عيد أسبوعي متكرر ، وهو يوم الجمعة الذي وردت فيه طائفة كبيرة من الأحاديث والآثار ، وهناك أعياد تأتي في العام مرة ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد لهم يومين يلعبون فيهما ، فقال : « إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما : يوم الفطر ويوم الأضحى » .

وروى عن عقبة بن عامر أن النبي قال : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام ، وهي أيام أكل وشرب » ...

ومن طبيعة الأعياد أن تتسم بالفرح والسرور ، لأنها تأتي في أعقاب نصر وفوز ، وتكون خاتمة لمرحلة من مراحل التوفيق في أمر من أمور الدين أو أمور الدنيا ، ولا عيب على المسلم إذا أخذ حظه من الفرح في موطن البهجة ، أو أبدى سروره في مقامات السرور ، والله عز وجل قد جعل السرور من خير الثواب الذي يلقي به عباده يوم الجزاء : « فوقاهم الله

شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . ويقول القرآن : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقه ، فأما من أوتى كتابه يمينه ، فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا » .

ولكن الذى يحسن بالإنسان هو أن يكون معتدلا قاصداً فى فرحه وسروره ، فلا يسرف ولا يشتط ، بل يتوسط ويقارب ، لأنه من الأمة الوسط ، وفى القرآن الكريم : « إن الله لا يحب الفرحين » أى الذين يكثرُونَ الفرح بزخارف الدنيا . وليذكر المسلم هنا أن العيد الأصغر وهو عيد الفطر يأتي عقب جهاد هو الصوم ، وما يكاد المسلم يأخذ حظه من الراحة والاستجمام فيه حتى يعود إلى الجهاد الحسى والروحي ، ويستعد لموسم الحج . وعيد الأضحى يأتي عقب رحلة الحج التى يبذل فيها المسلم ما يبذل من جهده وجهاده ، وما يكاد يعود إلى بلده عقب الحج حتى تطل عليه أضواء عام هجرى جديد تدعوه إلى أخذ الأهبة للبدء فى مرحلة جديدة من مراحل العمل لخير الذات ، وخير الجماعة المسلمة ، وخير الناس كلهم .

ومعنى هذا أن المسلم من شأنه أن يعمل ، فإذا استوفى حظه وجهده من العمل وقف وقفة الراحة والاستجمام ، ليأخذ

صفيه من الهدوء والرضى ، ثم يعاود العمل ، فإذا قطع مرحلة
خذ فترة راحة ، ثم عاود العمل . . . وهكذا . . .

يدأب المسلم على ذلك دون ان يسرف في عمل فيرهق نفسه
ويزهقها ، ودون أن يسرف في فرح فيوهن دعائم التماسك
والنضال فيها : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها
كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

ومن الشائع لدى العامة أن الأعياد «فُرص» يعبون فيها من
اللهو عبا ، ويشربون خلالها من الأهواء بأوفى المكايل ،
بلا تحرز من حرام ، أو تباعد عن باطل ، أو اتقاء لإثم ،
وهذا ضلال في الاعتقاد ، وانحراف في الاتجاه ، فما كانت
الأعياد في الإسلام إلا وأحة فيحاء يمجّد المسلم عندها واراف الظل
ونير الماء ورقيق الهواء وطهور المتاع . . .

ومن الجدير بالمسلم أن يحسن التنقل في الأعياد بين اللهو
الطيب والذكر الحميد ، وبين الإقبال على الراحة وعدم الغفلة
عن واهب النعم ومصدر الكرم جل جلاله ، وليذكر أتباع
محمد عليه الصلاة والسلام أنه قال في هذا المقام : « من أحيا
ليلتي الفطر والأضحى لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » . وفي رواية :
« من قام ليلتي العيدن محتسباً لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

وعن الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه أنه قال : « بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال : أول ليلة في رجب ، وليلة نصف شعبان ، وليلتي العيد ، وليلة الجمعة » .

ونُسب قريب من هذا إلى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكر ابن الجوزي في سيرته أن عمر كتب إلى عامله على البصرة عدى بن أرطاة يقول له : « عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله تعالى يفرغ فيهن الرحمة إفراغاً : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة النحر » . وقال سهل بن عبد الله التستري عن هذه الأعياد : « إنها أيام يُرجى فيها الفضل من الله ، فإذا انشغلت فيها بهواك ، ومتعت فيها النفس ، فمتى ترجو الفضل والمزيد » ؟ . . . !

ولقد خطب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في عيد فطر فقال : « أتدرون ما مخرجكم هذا ؟ صتم ثلاثين يوماً ، وقتم ثلاثين ليلة ، ثم خرجتم تسألون ربكم أن يتقبل منكم » ! .

ولا شك أن من خرج إلى ربه بعد طاعة عملها يرجو قبوله لها يكون في خشوع وخضوع ، وفي أمل ورجاء ، وأدب ووقار ، حتى لا يرد الله عليه عمله ، وحتى لا يحرمه ثوابه ! . . . وكتب

عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن معاوية بن حصين يقول :
 إن استطعت أن تحيي ليلة النحر فإنها ليلة العابدين .
 وقال الحسن : « كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد » .
 ومن مآثور القول : « ليس العيد لمن لبس الجديد ، إنما العيد
 لمن طاعته تزيد ، ولمن خاف يوم الوعيد ، وليس العيد لمن
 تجمل باللباس والركوب ، وإنما العيد لمن غفرت له الذنوب » .
 وأنشد الشبلي :

عيدى مقيم ، وعيد الناس منصرف
 والقلب منى عن اللذات منحرف
 ولى قرينان ، مالى منهما خلف
 طول الحنين ، وعين دمعها يكف
 ومن الشائع كذلك أن الأعياد موعد للإسراف فى ألوان
 الطعام وكمياته إلى حد التخمّة ، مع أن دستور المسلم فى ذلك
 هو قول الحق تبارك وتعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .
 وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه
 يعطينا درساً بليغاً عن الإقتصاد فى الطعام ، فقد كان ابن عمه
 مسامة بن عبد الملك شرباً منهما مسرفاً فى الطعام ، لا يكتفى بلون

أو لونين ، بل يجمع الألوان من الأطعمة ، ويكثر منها في نهم
وتوسع ، فأراد عمر أن يعلمه ويقومه ، فدعاه الى بيته مبكراً ،
وانتظر عمر حتى جاع مسامة ، وأراد أن يستأذن فاستبقاه عمر ،
وأمر أهل بيته أن يعدوا ثريد عدس وحده ، وأن يعدوا ألواناً
شبيهة أخرى من الطعام . .

فلما امتد الوقت واشتد الجوع بمسامة أمر عمر بطعام
العدس ، فأخذ مسامة يأكل منه في رغبة قوية وشبهة بادية ،
حتى شبع ، ثم أمر عمر بتقديم الألوان الأخرى ، فلم يد إليها
مسامة يدا ، فقال له عمر : كل . فأجاب : قد شبت ولم يبق
ميل للطعام . . . قال عمر : فلماذا السرف في الطعام والتفحم
في النار ، وهذا يجزى عنه ؟ . . . فاعتبر مسامة بذلك ، وأخذ
يحمل نفسه على الاقتصاد في الطعام . . .

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز أتى منزله فقال : هل عندكم
من طعام ؟ . فأصاب تمرًا ، وشرب ماء ، واكتفى بذلك ، وقنع
به ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله ! . ومن كلام عمر
أيضاً : « يؤسأ لمن كان بطنه أكبر همه » .

ويروى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رأى رجلاً
تكرش بطنه من الإسراف في الطعام وألوانه ، فأراد أن ينبهه إلى

سوء ذلك، فقال له معرضاً وقد أشار إلى بطنه بأصبعه : « لو كان هذا في غير هذا المكان لكان خيرا لك » . وقال الرسول : « ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكل والشروب ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة » .

ومن آداب الأعياد وملاحظها الأساسية الإحسان ومعونة الناس ، لأن الأعياد أفراح ومسرات ، وخير مسرة هي التي تعم الجميع ، والرجل الأصيل يميل إلى الانفراد بما يهيمه أو يحزنه ، فإذا شملته فرحة أسعده أن يجد الذين حوله يشاركونه فيها ، ويقاسمون بهجتها ومسرتها ، ولذلك كان العيدان الرئيسيان في الإسلام يومين من أيام التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، ففي عيد الفطر يخرج المسلم زكاة الفطر ، وفي عيد الأضحى يضحي المسلم بذبيحة يأكل منها ، ويهدي إلى أحبائه وأصدقائه ، ويحسن منها إلى الذين لا يجدون سعة في هذا اليوم الكريم .

وليس من آداب الأعياد ولا من المشروع أو المباح في الإسلام إتيان الفجور ، أو شرب الخمر ، أو الاختلاط الفاحش بين النساء والرجال ، أو يات النساء في المقابر ، أو تلك المهازل التي يرتكبون فيها مختلف الآثام والمنكرات ، ويصفونها بأنها احتفال أو ابتهاج بالأعياد ، فذلك أيام مجيدة

مشهودة ، مجموع لها الناس ، فيجب أن تنتزه عما لا يليق بالعقلاء والفضلاء. ولو كانت هذه الأعياد أعيادا للشيطان لجاز أن ينسب إليها هذا الباطل الأثيم والبهتان الشنيع من عدوان على الحرمات ، واستخفاف بأوامر الله ، ومجاوزة لحدوده ، ولكنها أعياد الرحمن ، فيجب أن نعف فيها عما حرمه الله ، وعما لا يليق بالأخيار الأطهار من عباد الله : «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» .

وهذا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو القدوة الأولى للمسلم : تتبّع هديه في الأعياد فلا نجد فيه ما يمت إلى هذا الباطل بسبب قريب أو بعيد ، وخلاصة هديه في العيدين أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يصليهما بعد أن يغتسل لهما ، وكان يلبس للخروج أجمل ثيابه ، وكانت له حلة خاصة يلبسها للعيدين والجمعة ، وفي بعض المرات كان يلبس بردين أخضرين ، أو يلبس بردا فيه خطوط حمر كالبرود اليمنية ، وكان يأكل قبل خروجه في عيد الفطر تمرات ، وفي عيد الأضحى لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته ، وكان يؤخر صلاة الفطر ، وذلك ليتمكن من توزيع زكاة الفطر ، ويعجل صلاة الأضحى ، وذلك ليتسع الوقت لذبح الأضحية .

وكان يجمع الصدقات من المسلمين والمسلمات بعد أداء الصلاة وسماع الخطبة ، وإذا كان يريد أن يبعث بعثا ذكره لهم . قال الإمام ابن القيم مانصه : « وكان صلى الله عليه وسلم يخالف الطريق يوم العيد ، فيذهب في طريق ويرجع في أخرى ، فقيل : ليسلم على أهل الطريقين ، وقيل : لينال بركته الفريقان وقيل : ليقضى حاجة من له حاجة منهما ، وقيل : ليظهر شعائر الإسلام في سائر الفجاج والطرق ، وقيل : ليغيظ المنافقين برؤيتهم غرة الإسلام وأهله وقيام شعائره ، وقيل : لتكثر شهادة البقاع ، فإن الذهاب إلى المسجد والمصلى إحدى خطوتيّه ترفع درجة ، والأخرى تحط خطيئة ، حتى يرجع إلى منزله ، وقيل — وهو الأصح — إنه لذلك كله ولغيره من الحكم التي لا يخلو فعله عنها » .

فليكن لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة كريمة ، ولنجعل أعياد الإسلام بيننا أياما مضيئة بيضاء ، تشرق بالبهجة القويمية والمسرة الكريمة ، وتزدان بالرضا والرضوان ، وتفتح أبواب النشاط والإقدام على مراحل العمل والنضال من أجل حياة إسلامية عالية ، أصلها ثابت وفرعها في السماء !!! .

يوم الأعراب

« صورة أتخيلها كأنها مشهد سينمائي يجمع بين حقيقة التاريخ وصناعة الفن » :

نرى خالد بن الوليد وهو واقف على باب قبة السلاح ، بقرب دار الندوة والكعبة ، ونرى الجنود يتقدمون ويتسلمون منه سلاحاً ، ويدور بينه وبين بعضهم حوار نفهم منه أن قريشاً قد اتفقت مع بنى النضير وغطفان واشجع وأسد وسليم وغيرها على مهاجمة الرسول للقضاء عليه ؛ ويعلق شخص بقوله : أو لم تكفه يا خالد ضربتك يوم أحد ؟ .. فيجيبه بأن هذه الضربة لم تردعه ، ولم تصرفه عن دعوته ، فلا زال يبعث سراياه لنشر دعوته ، أو لإظهار تهديده .

فيقول آخر : إذن لا بد من جولة أخرى حاسمة يكون فيها القضاء الأخير . . . فيقول خالد : ويجب أن تكون في عقر داره نفسها ، في « المدينة » ، حتى لا تقوم له بعد ذلك قائمة ! . وتتحول إلى « دار الندوة » ، فترى القوم وقد انتهوا من ترتيبهم ، ونسمع أن رئاسة الجيش لأبي سفيان بن حرب ،

وأن اللواء بيد عثمان بن طلحة ، وأما خالد فسيكون على رأس
الفرسان أصحاب الحيل ، لعله يذيق المسلمين هذه المرة كأساً
أشد مرارة من كأس « أحد » ، كما نفهم أن جيش قريش
سيلتقى خارج مكة ببقية جيوش القبائل التي تأمرت معها على
القضاء على محمد . . . ثم ينادى أبو سفيان : فلنتجه إلى الكعبة
حتى نلتمس البركة من أصنامنا ومن كبيرها « هُبَل » ! . . .
وننتقل إلى الكعبة ، فزأها وحولها الأصنام ، ونرى جماعة
المشركين وقد ألصقوا أكبادهم بالأصنام ، وأخذوا يطلبون منها
النصرَ والمعونة ، حتى يقدموا إليها القرابين عقب عودتهم
منتصرين من معركتهم مع محمد ، وحتى يتفرغوا لعبادتها ، فقد
شغلهم محمد عن هذه العبادة بفتنة دينه الجديد . . .

ولا مانع أن نرى خالداً وهو يتمسح بأحد هذه الأصنام ،
ويقول له : لعل أعظم قربان أقدمه إليك أيها الإله هو
أن أحمل لك وأنا راجع رأس محمد الصابي ! . . ثم نرى القوم
يتبهون من هذه الطقوس ، وينضمون إلى مقدمة الجيش ،
ويبدأون المسير في اتجاههم نحو المدينة .

وننتقل إلى عرض الصحراء ، فنشهد من بعيد طائفة من
الجيش مقبلة ، وهي غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري ،

وبنومرة وقائدها الحارث بن عوف ، وبنو سليم وقائدها
سفيان بن عبد شمس ، وبنو أشجع وقائدها مسعود بن رخیلة ،
وبنو أسد وقائدها طليحة بن خويلد ، ونشاهد كأن هذه الجيوش
تقبل من جهات مختلفة لتتلاقى عند ملتقى معين .

ونترك هؤلاء إلى ظاهر « المدينة » فترى طائفةً من المسلمين ،
وقد بلغتهم أنباء تحرك الجيوش المشتركة إليهم ، وهم في شغل
شاغل من ذلك ، ونرى بأيديهم القنوس والمكاتل وأدوات الحفر
الأخرى ، ونسمع أن الأمر قد استقر بينهم على حفر خندق
في الجهة المكشوفة من المدينة ، وأن هذا الحفر من مشورة
سلمان الفارسي الصحابي ، ويبدأون في الحفر بمجد واهتمام .

ونشهد المدينة وخلفها جبل (سلع) ، وقد أخذ بعض آخر
يسد الثغرات الموجودة في منافذ المدينة على جانبي الجبل ،
حتى لا يبقى بعد حفر الخندق مكان صالح لتسلل المشركين منه
إلى داخل المدينة ، ونلاحظ أن المسلمين يسرعون في الحفر
بلا إبطاء ، ولا مانع أن نسمع من بعضهم هذا البيت :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
أو البيت التالي :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ونلاحظ أن المسلمين قد وضعوا الأطفال والنساء في المؤخرة ، في الأماكن العالية كالربوات أو سفح الجبل خوفاً عليهم وعليهن من السبي
ثم نتقل إلى الصحراء ، فترى جيوش المشركين قد تضاقت وصارت ثلاثة فيالقي ، ونرى ضخامة العدد (إذ كانوا عشرة آلاف) ، ونشهد كثرة السلاح والعتاد معهم ، ونرى أبا سفيان في الطليعة لأنه الرئيس العام ، ونشهد خالداً على مقربة منه وهو يتزعم الحيلة ، والجميع يحدّون في المسير نحو المدينة ، ونسمع منهم ما يدل على أنهم سيباغتون المدينة قبل أن يعلم محمد وصحبه ؛ وبذلك يذيقونهم الوبال ، ويكون لهم معهم يوم تتحدث به العرب إلى الأبد . . . ويمكن أن يكون هذا الحديث بين أبي سفيان وخالد بن الوليد .

* * *

ونعود فترى المسلمين لا يزالون يحفرون ويحملون الأتربة ، وقد اتسعت فجوة الخندق وامتدت وقاربت الانتهاء ، ولكننا نلمح في الوقت نفسه أنهم في تعب وجوع وقلق وخوف ، وأنهم يخشون أن لا ينتهوا من الحفر قبل وصول المشركين ، ولذلك يتواصون بالصبر ومضاعفة الجهود ، ونلمح بينهم الوليد بن

الوليد بن المغيرة وهو مجتهد في الحفر ، وحين استعراضنا لذلك
المشهد قد نسمع من يردد قول عبد الله بن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أينا
ونلمح أنه لم يبق إلا هنيهات على تمام الحفر ، ثم نشهد
على صفحة الأفق طلائع ضئيلة الحجم لجيوش المشركين ،
والمسلمون يكبرون ويحمدون الله تعالى ، لأنه أعانهم ووقفهم ،
فأتموا في أيام ما كان يحتاج إلى أسابيع . . .

ثم يتركون الخندق ، ويتعدون داخل المدينة ، بينما يدنو
المشركون شيئا فشيئا ، وهم يحسبون أن الطريق مفتوح ،
ولكنهم يدهشون كل الدهشة لوجود الخندق ، وهو حيلة
لم تعرفها العرب في حروبها من قبل .

على جانبي الخندق نشهد بعد ذلك صور المناوشات تدور
بين المشركين - وعلى رأسهم خالد بن الوليد - وبين المسلمين ،
وفيهم الوليد بن الوليد وأسيد بن حضير وغيرهما ؛ ويتراقص
الفریقان بالنبال والحجارة ، ثم نفهم أن الحصار قد طال أياما ،
وبينما نسمع في صفوف المشركين دهشتهم من صبر المسلمين

واحتالمهم الحصار ، نسمع من جهة صفوف المسلمين معانى الجوع
والخوف والتعب والتطلع إلى الله وحده لينصرهم ، وأنه
لا ملجأ لهم ولا نصير سواه فى هذا الحصار الطويل المرير .

ونسمع من دعائهم : « اللهم منزل الكتاب ، وسريع
الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم ، وانصرنا
عليهم » . وقولهم : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » .

ونشهد خالدا وهو يحاول عبور الخندق بجواده ، ولكن
الحصان يعصيه ، ويأتى عكرمة فيحاول ذلك أيضا فيعصيه
جواده ، أو لعل عكرمة يهاب المحاولة ، ويأتى ابن عم خالد
(واسمه نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي) ويحاول عبور
الخندق ، ولعله عصب عيني جواده ، فيسقط به الجواد فى الخندق ،
وتُدَقُّ عنقه ويموت ، ويطلب المشركون - وربما كان الطالب
خالدا - من المسلمين ان يعطوهم جثته ، ويدفعوا لهم ماشاءوا
من ذية ، فيبيح المسلمون لهم أخذها دون شئ ، لأنه
خبيث الدية ! .

ويقبل الليل ، وتوقد المصايح أو نحوها على الجانبين
فى حذر وتكتم ، ونرى المسلمين فى جانبهم وقد بدا عليهم

الضعف والهزال والتأثر بالجوع والبرد وطول الحصار ،
وهم يرددون الدعاء .

ونرى المشركين في الجانب الآخر وهم يتفوقون على القيام بهجوم
عنيف في الغد ، وبينما هم كذلك تهب ريح عاتية عاصفة صفراء ،
تثير الغبار ، وتحرك الرمال ، وتقطع الجبال ، وتُطير الحيام ،
وتمزق ما يثبت منها ، وتقلب الأوعية ، وتطفى النيران في جهة ،
وتشعلها في الجهة الأخرى ، وتنثر الأسلحة ، وتلقى بالرجال
فوق الأمتعة ، وتزلزل المكاف ، بل وتدفن بعض الرجال
في الرمال ، وتتناثر الحجارة والحصى ، في دوى مرعب كأنه
دوى الصواقي أو الرعود .

ونسمع أصوات استغاثة وحيرة واضطراب ، وحشرجات ،
وأوامر بالانصراف ، ونسمع أصواتا أخرى تظهر الدهشة
والعجب من هذه الظواهر .

ونشهد المسلمين على الجانب الآخر وهم يتجمعون قريباً من
حافة الحندق ، يشاهدون هذا ويتساءلون عنه ، ويعجب
بعضهم ، ولكن البعض الآخر يقول : هذا صنع الله ، هذه
يد القوى القادر ، إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء .
ثم تنأى عن حافة الحندق من جهة المشركين ، فتراهم وقد

أطلقوا سيقانهم للريح ، منهم الراكب ومنهم الراجل ، ثم نلح
 أبا سفيان وهو يطلب من خالد وعمرو بن العاص أن يبقيا في مئتي
 فرس لحماية ظهورهم ، و نلح على خالد التفكير والشرود ، وبعد
 أن يكمل الانسحاب ينقلب خالد وعمرو مع الفرسان في خيبة
 ظاهرة وضيق زائد . . .

وننتقل إلى جانب المسلمين ، فزاهم قد أدركوا انسحاب
 القوم ، فعلت تكبيراتهم وتحميداتهم ، يقولون: « لا إله إلا الله
 وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم
 الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . ثم يمجون في فرح
 وجور ، وتتردد في أفق المكان أصداء الآيات الكريمة :
 « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم
 جنود فأرسلنا عليهم ريحا و جنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون
 بصيرا ، إذ جاءكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت
 الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك
 ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

يوم بنى قريظة

التاريخ الإسلامى أن زعيم هذه الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام ، كان أميناً وفياً بعهده ، لا يخلف الوعد ، ولا يخون الميثاق ، وكان له بجوار ذلك غلبة محمدية تحرس الحق ، وتنتصف من المظلوم ، وتردع الطاغى الغشوم . ومن أمثلة ذلك أنه عليه الصلاة والسلام عاهد بنى قريظة ، وهم قوم من اليهود كانوا يجاورون المدينة ، فأبطنوا النفاق والشقاق ، وأظهروا المودة والمهادنة ، ثم جاءوا فى ساعة من أخرج الساعات على المسلمين وهى « غزوة الأحزاب » فنقضوا العهد ، وأعلنوا الخديعة ، وانضموا إلى صفوف المحاربين من المشركين .

فلما أتم الله النصر على رسوله وعلى المؤمنين ، وهزم الأحزاب بفضل الله المبين ، صدقت عزيمة الرسول على تأديب هؤلاء الخائنين ، وسارت كتيبة الإيمان المظفرة نحوهم ، وهى مصرة على النصر أو القبر ، وضربوا الحصار على معقل بنى قريظة مدة طويلة من الزمن ، فلما اشتد الأمر بهؤلاء

اليهود اللؤماء أراد كبيرهم « كعب بن أسد » أن ينصحهم ويرشدهم إلى طريق الحكمة والسداد ، فجمع جموعهم وقال لهم :

— يا معشر اليهود ! لقد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى سأعرض عليكم أموراً ثلاثة ، فاختاروا أيها شئتم .

قالوا : وماهى ؟ . قال : تتابع هذا الرجل ونصده ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل ، وأنه هو الذى تجدونه فى كتابكم التوراة ، وبذلك تحفظون دماءكم وأموالكم وأبناءكم ونساءكم .

فقالوا : إننا لانفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره . قال : فإذا أيتم على هذه فهل ، فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف^(١) ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا ولا حريماً ولا ثقلاً ، وإن نظهر عليه فسنخذ النساء ونلد الأبناء .

فقالوا مستنكرين : أنقتل هؤلاء المساكين الضعفاء ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ . قال : فإذا أيتم على هذه أيضاً فهيا بنا ، فإن

(١) أى متخذين السيوف الصقيلة الماضية .

الليلة ليلة السبت ، وإن محمداً وأصحابه قد آمنونا فيها ، فانزلوا إليهم الليلة ، لعلنا نصيبهم على غرة .

فقالوا : أتريد أن تُفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما أحدثه بعض السابقين فسخمهم الله قردةً وخنازير ؟ . . .
فهر كعب رأسه أسفاً وقال :

— والله ما أرى فيكم رجلاً حازماً ، فأنتم وما شئتم ! . .

* * *

فلننظر إلى هؤلاء القوم ولناخذ العبرة منهم ، فالمؤمن يتلقى الحكمة من أى وعاء خرجت . . . إنهم يعرفون أن دينهم قد نالته يد التحريف والتبديل ، وأن عهده قد مضى ، وأنه قد نُسخ بشريعة سيد الأنبياء ، ومع ذلك يتعصبون له ، ويفنون فيه ، ولا يريدون أن يخرجوا عنه ، أو يخرجوا حرمة من حرماته ، وهم يرون الموت والدمار ، ويبصرون السيوف مرفوعة على رؤوسهم ، فاشأنا نحن مع دين الله دين الحق ، ونحن نعتقد صدقه وصلاحيته وخلوده ، وارتباط السعادة الدنيوية والأخروية بتنفيذه ؟ . ما مبلغ اعتراضنا الشريف بهذا الدين الحنيف مع أن الله قد جعله لنا عقيدة وهداية ؟ .

جواب هذا السؤال معروف للقلوب والعقول والأبصار ،

فليس بحاجة إلى تكرار ، ولكننا بحاجة إلى أن ندرك الرتبة السامية التي وصل إليها المسلمون الأولون في احترامهم لدينهم ، وتمسكهم بتعاليمهم ، وإجلالهم لشريعتهم ، وانطباعهم على الإخلاص والوفاء لتعاليم السماء التي جاءت بأسباب العدالة والرحمة والرخاء .

لقد نال « بنى قريظة » من الرعب مانالهم ، فأرادوا أن يستأنسوا برأى أحد المسلمين من حلفائهم السابقين ، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم « أبا لبابة الأوسى » ليشير عليهم ، فلم يمانع في ذلك رسول الله ، وماكدا أبو لبابة يتخطى أسوارهم حتى اجتمع حوله الرجال والنساء والأطفال وهم يكون أحرًا البكاء ، وسأله أحدهم : هل ترى أن تنزل على حكم محمد ؟ . فقال : نعم . ثم خاتته أناته فأشار بيده إلى حلقه ، وقال : إنه الذبح ! . . . أى إن مصيرهم سيكون الذبح ، ولعله علم أن النبي صلى الله عليه وسلم أعد لهم هذه العقوبة جزاء غدرهم وخيانتهم .

ثم انتبه أبو لبابة لنفسه فعرف أنه قد أفشى سراً من أسرار الحرب ، يقول : « فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني قد خنتُ الله ورسوله ، فندمت واسترجعت فنزلتُ وإن لحيتي

لمبتلة من الدموع ، والناس ينتظرون رجوعى إليهم ، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى حتى جئت المسجد .

نعم : انطلق على وجهه واليهود يعجبون من فزعه وانطلاقه السريع ، حتى وصل المدينة دون أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واقتحم المسجد فربط نفسه فى عمود من عمده وهو يقول :

« والله لا أبرح من مكاني هذا حتى أموت أو يتوب الله عليّ مما صنعت ، وأعاهد الله ألا أطأ بنى قريظة أبداً ، ولا أرى فى بلد خنتُ الله ورسوله فيه أبداً » .

واستبطأ النبي أبا لبابة ، فبعث من يأتيه بنبيه خشية أن يكون اليهود قد أسروه ، فإذا الأخبار تأتى بقصته التى أسلفنا ، فقال النبي : « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى يطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . وأنزل الله فى أبى لبابة قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وظل أبو لبابة مرتبطاً بالعمود ستة أيام وقيل أكثر ، تأتبه امرأته فى كل وقت صلاة ، فتحله للصلاة فيصلى ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع ، وكاد يذهب بصره من الجوع والأسف .

قال أبو لبابة : « فكنيت فى أمر عظيم وفى حر شديد عدة

ليال لا آكل فيهن شيئاً ولا أشرب ، وقلت : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ ، وأذكر رؤيا رأيتها في النوم ونحن محاصرون بني قريظة كأني في حماة آسنة (أى طين منن) فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ، ثم رأيت نهراً جارياً فأراني اغتسلت فيه حتى استنقيت ، وأراني أجد ريحاً طيبة . . . فاستعبرتها أبا بكر (أى طلبت منه تأويلها) فقال: لتدخلن في أمر تغتم له ثم يفرج عنك ، فكنت أذكر قوله وأنا مرتبط فأرجو أن ينزل الله توبتي ، فلم أزل كذلك حتى ما سمع الصوت من الجهد ورسول الله ينظر إلىّ ! . . .

وفي ختام هذه المدة كان رسول الله في بيت أم سلمة بالسحر ، فنزل عليه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » . فتبسم رسول الله وضحك ، فقالت له أم سلمة : مم تضحك يا رسول الله ، أضحك الله سنك ؟ .

فقال : لقد تاب الله على أبي لبابة . فقالت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ . فقال النبي : بلى ، إن شئت ؛ فقامت ولم يكن الحجاب قد ضرب بعد فنادت أبا لبابة قائلة :

يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك . فسمع المسلمون

بالمسجد هذا النبأ فتسارعوا مستبشرين إلى فك قيده ، فقال لهم :
 لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى يده .
 فلما كانت صلاة الصبح خرج النبي من بيته وأطلق سراحه .
 فهل فينا من يتسم رائحة هذا الوفاء النادر ، أو يتمثل بتلك
 المراقبة الدقيقة لذات الله حتى يحيى موات قلبه ، ويقضى على
 فتور همته ؟ .

هل فينا من يستجيب لتلك الدواعى الكريمة التى تهيب
 بنا أن نخاف الله ونراقبه، ونعبده كأئنا نراه ، فإن لم نكن نراه
 فإنه يرانا ، لأنه محيط بما فى السموات والأرض ، وهو العليم
 الخبير ؟ .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ،
 وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
يوم الندوة	١٠
يوم الهجرة	١٩
يوم الإسراء والمعراج	٤٥
يوم الفرقان	٥٣
يوم الفطر	٨٧
أيام في ضيافة الرحمن	٩٥
أيام المؤتمر الأكبر	١٠٢
يوم عرفات	١١٦
يوم التضحية	١٢٢
يوم الأحزاب	١٤٤
يوم بنى قريظة	١٥٢

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل انواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها..

واطلبه من :

دار القلم ١٨ شارع سودة التوفيقية بالقاهرة
مكاتب شركة توزيع الأضبار في الجمهورية العربية المتحدة
مكتبة المشي بغداد - العراق
الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس
مكتبة الندوة أم درمان - السودان

